من تراثنا الإسلامى فى مقارنة الأديان

مع الجاحظ

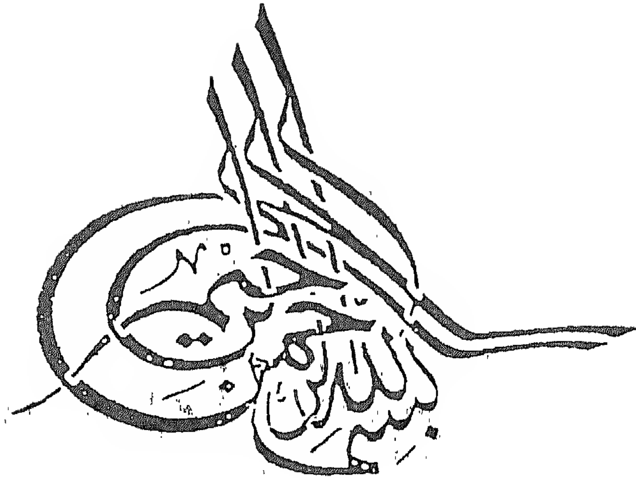
فى رسالة

« الرد على النصارى »

د. إبراهيم عوض

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ محمد فريد - القاهرة



١- رسالة الرد على النصارى

من بين رسائل الجاحظ رسالة عنوانها « الرد على النّصارى » ، وقد نُشِرت حتى الآن أربع نشرات على الأقل : النشرة التى طُبعت على هامش كتاب « الكامل » للمبرّد ، ونشرة المستشرق يوشع فنكل ، ونشرة الأستاذ عبد السلام هارون (وكانت كل من هذه النشرات الثلاث تضم مع الرسالة المذكورة غيرها من رسائل الجاحظ) ، ثم نشرة د. محمد عبد الله الشرقاوى (وقد طُبعت الرسالة فى هذه النشرة مستقلة) . وسوف يكون رجوعى فى هذا البحث إلى نشرة الأستاذ هارون ، وهى فى ثمان وأربعين صفحة من القطع المتوسط بملاحظات التحقيق .

وهذه الرسالة عبارة عن فصول مقتطفة من كتاب للجاحظ فى الرد على النصارى قام باختيارها (واختيار أمثالها من كتب أخرى لأديب العربية وفيلسوفها العظيم) أديب غير مشهور اسمه عبيد الله ابن حسان (١) . ويذكر القاضى عبد الجبار أن للجاحظ رسالتين فى الرد على النصارى ، وهما « الرسالة العسلية » و « المختار فى الرد على النصارى » (٢) . فهل هما كتابان مختلفان ؟ أم هل الرسالة الثانية هى مجرد مختارات من الأولى ؟ لا نستطيع أن نجيب على

ذلك ، فإن « الرسالة العسلية » مازالت مفقودة حتى الآن فيما نعرف (٣) .

وفى الرسالة التى ندرسها فى هذه الصفحات يذكر الجاحظ بعضًا من شُبه النصارى التى كتب له بها بعض الغيارى على الدين ممن أرادوا منه الردّ عليها ، ثم يقفّى على ذلك بنقضها. وأهم ما جاء فى هذه الشبهات أن القرآن الكريم يذكر تأليه النصارى لمريم عليها السلام مع أنهم ينكرون اتخاذها إلهًا على أى نحو من الأنحاء ، وأنه قد ورد فيه أيضا أن اليهود كانوا يقولون ببنوة عُزيْر لله سبحانه وتعالى ، وهم أيضا ينفرون هذا ويجحدونه . ومن ذلك أن هامان قد ذُكِر فى القرآن الكريم على أنه من حاشية فرعون ، مع أن المعروف أنه كان فى زمن الفرس بعد فرعون بدهر طويل . كما جاء فى القرآن عن يحيى بن زكريا عليهما السلام قوله سبحانه وتعالى : « لم نجعل له من قبْلُ سميّا» ، رغم أنه كان هناك قبله من اسمه يحيى . كذلك يعترض النصارى على ما ذكره القرآن الكريم من أن عيسى قد تكلم فى المهد (٤) . ويبتدىء الجاحظ ، قبل الدخول إلى نقض هذه الشبهات ، بمناقشة الأسباب والظروف التى جعلت رأى عامة المسلمين فى النصارى طيبا على عكس نظرتهم لليهود والمجوس ، ثم يثنّى ببيان الغلط فى

هذا الموقف ، موضحا أن قوله تعالى : « ولتجدنّ أقْربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ... » (٥) لا يعنى النصارى بوجه عام بل فريقا منهم مخصوصا كبعيرا والرهبان الذين اتصل بهم سلمان الفارسى قبل أن ينتهى به المطاف إلى يثرب حيث التقى بالنبى عليه السلام وآمن به (٦) .

وقد أبدى ابن قتيبة سخطه على صنيع الجاحظ فى رسالته هذه فقال إنه قد عمل « كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوّز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين » (٧) .

ولا يقتصر رأى ابن قتيبة السّيءُ على هذا الكتاب وحده بل يشمل الجاحظ وأعماله كلها تقريبا ، إذ قال إنه « من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل » ، وإنه يقصد إلى الإضحاك والعبث استمالةَ للأحداث وشُرّاب النبيذ ، ويستهزى بالحديث . كما يأخذ عليه تأليفه الكتب فى نصرة الشىء ونقيضه معًا ، ويرى فى ذلك دليلاً على انتفاء الإحساس بالمسؤولية لديه (٨) .

على أنَّ ملاحظة ابن قتيبة حول ردود الجاحظ على شبهات النصارى إن صدقت على بعض هذه الردود (إذ إن بعضها موجز فعلاً

ويفتقر إلى ما عُرِفتْ به كتابات الجاحظ من التوسُّع وتقليب الأمر على وجوهه المختلفة وتفنيده بالأدلة الساطعة والحجج القوية البارعة) (٩) فإنها لا تدل على ما اتهم به الكاتب السنّى نظيره المعتزلى من أن الأمر يبدو وكأنه قد أراد تنبيه النصارى على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين . كيف ذلك ولأبى عثمان كثير من الأعمال التى ينافح فيها عن دين اللّه ، ككتاب « الرد على اليهود » وكتاب « الرد على من ألحد فى كتاب الله عز وجل » وكتاب « نظم القرآن » وكتاب « آى القرآن » وكتاب « دلائل النبوة » مثلا ؟

وقد ذكر المرزبانى أن له كتبا كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وإن سارع فقال إنه « ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلب كتب تشبهها » (١٠) . ثم إن فى رسالة « الرد على النصارى » نفسها أشياء جدّ قوية فى تسخيف اعتراضات النصارى وإبراز تفاهة مزاعمهم . ومن يدرى ؟ فلعله لو وصلتنا « الرسالة العسلية » لوجدنا فيها حججًا أخرى وتفصيلاً أكثر فى الرد على هؤلاء القوم .

ومن الأشياء المهمة التى تُذْكر له ، رحمه الله ، أنه كان من

أوائل من نبّهوا إلى أن القرآن حينما قال : « ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى » لم يقصد جميع النصارى بل طائفة منهم فقط أبدت المودة تجاه الإسلام ونبيه . وسوف نناقش هذه النقطة فيما بعد ، ونبين وجه الخطورة فى الظن بأن القرآن يثنى على النصارى رغم تثليثهم وتأليههم لعيسى عليه السلام وقولهم بتجسد اللّه تعالى ونزوله إلى الأرض وموته صلْبا وكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم للقرآن الكريم .

أما دفاع الجاحظ عن الشيء ونقيضه فهو لون من الترف الفكرى والحساسية العقلية التى ترى الجوانب المختلفة للأمور . وطبيعة الحياة أنه ما من شيء إلاّ ويمكن النظر إليه من زوايا متعدّدة . وقلما يوجد شيء كله خير فلا شرّ فيه ، أو كلّه شر فلا خير فيه . والقرآن الكريم نفسه يقول عن الخمر ، التى وصفها بأنها « رجس من عمل الشيطان » (١١) ، إن فيها مع ذلك منافع للناس (١٢) . وهو رغم حملته على أهل الكتاب من يهود ونصارى يعود فيستثنى منهم فريقًا صالحًا ليس فيه عيوب سائر قومه . كذلك تكررت فيه الحملة على كنود الإنسان وكفره وظلمه ورعونته ، ومع هذا فقد ذكر أن الله كرّم الجنس البشرى وفضّله على كثير ممن خلقهم تفضيلا . وعلى أية

حال ، فهذه أسماء عدد من الكتب التى يمدح فيها الجاحظ الشىء ويذمه : ((كتاب العثمانية)) وكتاب ((الرد على العثمانية)) ، وكتاب ((إمامة معاوية)) وكتاب ((إمامة بنى العباس)) ، ورسالته ((فى مدح النبيذ)) ورسالته ((فى ذم النبيذ)) ، ورسالته ((فى مدح الوُرّاق)) ورسالته ((فى ذم الوُرّاق)) (١٣) .

إن فى الجاحظ بل وفى المعتزلة جميعا جسارة عقلية ، وهذا ما لا يرتاح إليه كثيرًا ابن قتيبة السنّى المحافظ . ولا ننس أنه كان بين أهل السنة والمعتزلة خصومة فكرية ، وسياسية أيضًا .

أمّا دعوى ابن قتيبة بأن الجاحظ كان يضع الأحاديث فتبدو بعيدةً لا تُصدَّق ، وكذلك القول بأنه كان يقصد الاستهزاء بالحديث النبوى الكريم ، إذ لا يفعل ذلك مسلم . إنما الأمر أن بعض العلماء قد يرون صحة حديث ما ، على حين ينفى صحته فريق آخر . وقد يخرج هؤلاء الأخيرون إلى السخرية ممن يقبلون الحديث ، بل قد يرون فيه إساءة إلى الإسلام ومناقضة لأصوله المجمع عليها ، فيظن من يقبلونه بل قد يدّعون عليهم أنهم إنما يستهزئون بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم . وحاشا مسلمًا أن يجرؤ على هذا ! ثم إن الجاحظ كان بطبيعته مرحًا يحب الفكاهة والنادرة ، كما كان بارعًا فى التهكم

بخصوم فكرته أيما براعة ، على عكس ابن قتيبة الوقور الذى يبدو مما قرأناه له وكأنه لم يكن يعرف الضحك .

وليس معنى ذلك أننا نريد الغض من ذلك المفكر السنّى الكبير ، فللرجل أيادٍ جليلة على الأدب العربى والفكر الإسلامى . وإنما نريد أن نوضح البواعث التى حدت به ، رحمه الله ، إلى تلك الحملة الشديدة على أبى عثمان . وكلاهما بعْدُ محبٌّ لدينه ، حريص على نصرته ، يقف بالمرصاد لكل من تتطاول عنقه إلى النيل منه . لكن لكل منهما بعد ذلك طريقته وأسلوبه .

وإذا كان ابن قتيبة قد اتّهم طريقة الجاحظ فى الرد على النصارى فإن الغزالى قد اتُّهم هو أيضا بمثل ذلك ، إذ قال عن المنهج الذى اتبعه فى عرض مذهب الباطنية : « فجمعتُ تلك الكلمات ورتبتها ترتيبا محكما للتحقيق واستوفيتُ الجواب عنها حتى أنكر بعض أهل الحق علىّ مبالغتى فى تقرير حجتهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهاتَ لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها » (١٤) .

والواقع أن هذا الأسلوب هو أسلوب المنصفين الواثقين بأنفسهم ، فهم يريدون أن يعطوا لرأى خصومهم الفرصة كاملة ليعرف الجمهور كل

شىء عنه قبل أن يشرعوا فى الردّ عليه ، ثقةً منهم أنهم قادرون على تفنيده تمامًا . وهذا الإنصاف هو سنّة إسلامية ، فينبغى ألا تضيق الصدور به . وهو فوق ذلك يمكّن لصاحبه فى قلوب القراء ، إذ يلمسون بأنفسهم صدقه فى عرض رأى خصومه ، وهذا من شأنه أن يميل آذانهم إليه ويجعلهم يطمئنون إلى ما يقول . وفى كلام الجاحظ نفسه فى الرسالة التى نحن بصددها دليل على هذا الذى نقول ، إذ جاء فيها : « قد جعلنا فى جواباتهم وقدّمنا مسائلهم بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ليكون الدليل تاما والجواب جامعا ، وليعلم من قرأ هذا الكتاب وتدبّر هذا الجواب أنا لم نغتنم عجزهم ولم ننتهز غرّتهم ، وأن الإدلال بالحجة والثقة بالفلْج والنُّصرة هو الذى دعانا إلى أن نخبر عنهم بما ليس عندهم وألا نقول فى مسألتهم بمعنى لم ينتبه له منتبه أو يُشِرْ إليه مشير وألا يوردوا على ضعفائنا ومن قصُر نظره منا شيئا إلا والجواب قد سلف فيه وألسنتهم قد مذِلتْ به » (١٥) .

وأخيرًا أختم هذه الكلمة بما قاله القاضى ابن أبى دؤاد فى الجاحظ حين أُتِى إليه به مقيّدا بعد الإيقاع بغريمه ابن الزيات (الذى كان الجاحظ منحازا إليه على حين كان منقبضا عن مجالس القاضى) ، إذ مال ابن أبى دؤاد على أحد الحاضرين قائلاً له :

« أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه » (١٦) ، كما قال للجاحظ ذاته حين أخذ يدفع عن نفسه ما اتهمه به من كفران النعمة : « قبّحك الله ! ما علمتُك إلا كثير تزويق الكلام . وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه الكفر والنفاق » (١٧) ، إذ لعلَّ بعض الناس يسارع إلى كلام ابن أبى دؤاد متخذا منه دليلاً على فساد دين الجاحظ وصحة ما قاله فيه ابن قتيبة . والحق أن ابن أبى دؤاد إنما قال ذلك على سبيل التظرف والمداعبة . وليس أقوى برهانا على ذلك من أنه قد دعا بالحدّاد من فوره ليكسر قيود أبى عثمان ، ثم أمر غلامه أن يصير به إلى الحمّام ويُميط عنه الأذى وأن يعطيه تخْت ثياب وعباءة وخُفّاً . ثم لمّا عاد الجاحظ من الحمّام أجلسه فى صدر مجلسه وأقبل عليه قائلاً : « هات الآن حديثك يا أبا عثمان » (١٨) . وقد كان ابن أبى دؤاد من رؤوس المعتزلة ، ولا يُعْقل أن يكون رأيه سيّئا حقا فى واحد من أهم ألسنة الاعتزال .

وفى الصفحات التالية سوف نقوم بعرض شبهات النصارى التى أوردها الجاحظ فى رسالته ونناقشها تفصيلاً ، مستعرضين أحيانا بعض أصدائها عبر العصور ومتوسعين فى الرد عليها وتبيين عوارها ، مع الاعتماد أولاً وقبل كل شىء على مقالات اليهود والنصارى أنفسهم .

الهوامش

١- انظر « رسائل الجاحظ » / تحقيق عبد السلام هارون / ٣ / ١٣ .

٢- انظر القاضى عبد الجبار / تثبيت دلائل النبوة / تحقيق د . عبد الكريم عثمان / ١ / ١٩٨ .

٣- انظر مقدمة د . محمد عبد الله الشرقاوى لكتاب نصر بن يحيى بن سعيد « النصيحة الإيمانية فى فضيحة الملّة النصرانية » / ٣١ .

٤- انظر « رسائل الجاحظ » / ٣ / ٣٠٣ - ٣٠٨ .

٥- المائدة / ٨٢ - ٨٥ .

٦- انظر « رسائل الجاحظ » / ٣ / ٣٠٨ - ٣١١ .

٧- ابن قتيبة / تأويل مختلف الحديث / ٥٩ .

٨- السابق / ٥٩ - ٦٠ .

٩- كذلك ليس فى الرسالة ردّ على الشبهة التى أثارها النصارى حول يحيى عليه السلام .

١٠- انظر « معجم الأدباء » لياقوت الحموى / ١٦ / ٧٦ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

١١- المائدة / ٩٠ .

١٢- البقرة / ٢١٩ .

١٣- انظر أسماء هذه الكتب فى « معجم الأدباء » / ١٦ / ١٠٩ .

١٤- د . عبد الحليم محمود / المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى / ١٢٨ .

١٥- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٤٩ - ٣٥٠ . ومذلتُ به : تكلمت به وأذاعته .

١٦- معجم الأدباء ٪ ١٦ ٪ ٨٠ .

١٧- السابق ٪ ١٦ ٪ ٧٩ .

١٨- السابق ٪ ١٦ ٪ ٨٠ .

٢ - عبادة مريم

ونبدأ بأولى الشبهات التى ذكرها الجاحظ ، وهى قول النصارى إن الدليل على بطلان القرآن الكريم وفساد أمر المسلمين « أننا (نحن المسلمين) ندّعى عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ولا يعرفونه من أسلافهم ، لأننا نزعم أن الله جل وعزّ قال فى كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ » (١) ، وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله فى سرهم ولا ادّعوا ذلك قط فى علانيتهم » (٢) . وهذه الشبهة مما لم أجد للجاحظ ردًّا عليها فى الرسالة التى بين أيدينا ، ولا أدرى لماذا .

وفى « دائرة المعارف الإسلامية : Encyclopaedia of Islam » نجد كاتب مادة « مريم » يجهد نفسه فى إثبات أن القرآن قد أخطأ حين جعل النصارى يتخذون مريم إلهًا ، إذ قال إن الرسول ربما تأثر فى تصوره ذاك بما تُوليه الكنيسة لمريم من تبجيل أو ربما كان ذلك منه استنتاجًا أساسه الخلط بين عيسى والروح القدس ، مما ترتب عليه خلوّ موضع من المواضع فى الثالوث بدت له مريم جديرة بشغْله (٣) .

وقد كنت قرأت ، فيما أذكر الآن ، لمستشرق بريطانى قسيس ينكر ما جاء فى هذه الآية ، ويؤكد أنه لم يحدث أنّ عبد النصارى مريم فى أى وقت من الأوقات . ولم يكتف بهذا بل اتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه إنما كان يستقى مثل هذه المعلومات عن النصرانية من العوام والجهلة ، الذين لا يوثق بهم ولا يعوّل على ما يقولون .

كذلك فقد كتب الأنبا شنودة فى أواخر عام ١٩٧٠م ، قبل أن يتولى البابوية ، مقالاً عن « القرآن والمسيحية » ذكر فيه الآية القرآنية التى نحن بصددها ، وأنكر بقوة أن تكون المسيحية قد قالت فى يوم من الأيام بألوهية العذراء ، ثم أضاف قائلاً إنه « إذا كانت قد قامت بدعة تنادى بتأليه العذراء فإن المسيحية تحاربها بكل قوة » (٤) .

كما جاء أيضا فى مادة « مريم » فى « الموسوعة العربية الميسرة » أنها ليست موضوع عبادة عند النصارى لأن العبادة للخالق وحده (٥) . ومن الواضح أن كاتب هذه المادة قد أراد تكذيب القرآن من طرف خفى ، وإلا فما الذى دعاه إلى هذا القول إن لم يكن النصارى قد عبدوها وألّهوها ؟

والواقع أن الآية القرآنية الكريمة لم تعْدُ الحقيقة وأن كلّ من

يعترض عليها أو يحاول لمزها إنما هو المبطل . وقد ذكر ابن البطريق ، وهو مؤرخ نصرانى شديد التعصب ، أن من النصارى من كان يقول إن المسيح وأمه إلاهان من دون الله ، وهم طائفة « البربرانية » (٦) .

وفى مـــادة « Mary the Virgin » مـــن « Dictionary of the Bible » (٧) (وهو معجم للكتاب المقدس شديد الضخامة اشترك فى تاليفه علماء متخصصون غربيون ، وفيهم كثير من رجال الدين) نجد أنه كان من النصارى طوائف تعبد مريم مع المسيح عليه السلام .

بل إنه حتى فى « دائرة المعارف الإسلامية » نجد كاتب مادة « مريم » ، وهو نفس المستشرق الذى خطّأ القرآن فى هذه المسألة ، يعترف بأنه كان هناك فعلاً من النصارى من يعبدون مريم ويتخذونها إلها جاعلين منها أقنومًا من أقانيم الثالوث (٨) .

وفى مادة « Mary » فى « موسوعة الدين والأخلاق : Encyclopaedia of Religion and Ethics » كلام كثير عن شعائر العبادة لمريم ، وكيف نشأت هذه العبادة ثم تطورت على مر العصور عند الكنائس النصرانية المختلفة ، وكيف تُرْفع الصلوات إليها ويُطّلب منها ما ينبغى ألا يطلب من غير الله سبحانه ، ويُخْلع عليها من الصفات ما هو من حقه تعالى وحده ... إلخ (٩) .

وفى « الموسوعة البريطانية : Encyclopaedia Britannica » أيضا حديث عن عبادة النصارى لمريم عليها السلام بوصفها أم الإله ، إذ يصلون لها ويسبحونها ويتجهون إليها بالدعاء والمطالب المختلفة لتحققها لهم (١٠) .

وفى « موسوعة كولييه : Collier's Encyclopaedia » نقرأ النص التالى ، وهو غنى عن أى تعليق : « وقد ترتب على كون مريم أمَّ الإله أنها فاقت فى النبل جميع البشر ، واحتلت من حيث القداسة المكانة التالية مباشرة لابنها الإله . وقد كرّمتها الكنيسة وميزتها بتمجيد خاص يختلف عن ذلك الذى خلعته على القديسين الآخرين ... وكذلك بالعبادة ، التى هى من حقّ الله وحده ... إلخ » (١١) .

وقد أكد ول ديورانت « أن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها ... وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القُدّاس الخفية الرهيبة ... (و) جاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ... ومنها جاءت عبادة أم الطفل ... ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ... وقصارى القول إن المسيحية كانت آخر شىء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم » (١٢) .

ويذكر رجل دين نصرانى هو القمص زكريا إبراهيم « أن هذه

الفرقة (يقصد الفرقة التى تعبد مريم) ظهرت فى القرن الخامس الميلادى . وكان أصحاب هذه البدعة من الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية ، وكانوا فى وثنيتهم يعبدون الزهرة ويقولون عنها : « ملكة السماء » . وعندما اعتنقوا المسيحية حاولوا التقريب بين ما كانوا يعبدون وبين العقيدة المسيحية ، فاعتبروا مريم ملكة السماء أو إلهة السماء بدلا من الزهرة ، ولذلك أطلقوا على أنفسهم اسم المريميين » (١٣) .

وقد ذكر هذه الفرقة أيضا مؤلفٌ نصرانى آخر هو زكى شنودة فى كتابه « تاريخ الأقباط » (١٤) .

وهذا الذى يقوله أهل البيت العالمون بخباياه وخفاياه لم يكن يجهله علماء الإسلام منذ وقت جدّ مبكر . فهذا قتادة ، وهو من التابعين ، يقول : « اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا أربعة نفر ، أخرج كلّ قوم عالمهم ، فامتروا فى عيسى حين رُفع . فقال بعضهم : هو الله ، هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء . وهم اليعقوبية . فقال الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل أنت فيه . قال : هو ابن الله . وهم النسطورية . فقال الاثنان : كذبت . ثم قال أحد الاثنين للآخر : قل فيه . قال : هو

ثالث ثلاثة : الله إله ، وهو إله ، وأمه إله . وهم الإسرائيلية ملوك النصارى . فقال الرابع : كذبت ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته . وهم المسلمون . فكان لكل رجل أتباع على ما قالوا ، فاقتتلوا فظهروا على المسلمين » (١٥) . وقتادة يشير فى كلامه هذا إلى المؤتمرات العقدية التى كان يعقدها النصارى فى القرون الأولى من تاريخهم والخلافات التى كانت تنشب بين بطاركتهم فى هذه المؤتمرات وكيف انتهى الأمر إلى تسلّط الاتجاه الوثنى على عقيدة الموحّدين .

وقد تحدث عن ذلك الراهبُ الإسبانى أنسلم تورميدا ، الذى ترك النصرانية ودخل فى دين التوحيد وسُمّى عبد الله الترجمان ، إذ يقول عن أهل ملته الأولى إنهم « يؤمنون بأن الله ، تعالى عن قولهم ، ثالث ثلاثة ، وأن عيسى هو ولد الله ، وأن له طبيعتين : ناسوتية ولاهوتية ، وهاتان الطبيعتان صارتا شيئا واحد فصار اللاهوت إنسانا مُحْدثا تاما مخلوقا ، وصار الناسوت إلها تاما خالقا غير مخلوق . وبعضهم يقول : الثلاثة هم الله تعالى وعيسى ومريم » (١٦) .

وقد ذكر هذه الفرقة أيضًا ابنُ حزم ، وقال (مثلما قال ابن البطريق من قبل) إن اسمها « البربرانية » . كما أشار إلى أن النصارى يسجدون (فيما يسجدون له من تماثيل) لتمثال مريم

ويصومون له تدينا (١٧) .

كما أورد بعض علماء المسلمين ما يدعوها به النصارى فى صلواتهم مثل : « يا والدة الإله العذراء ، اسْعَىْ فى خلاصنا وافرحى يا والدة الإله . مباركة أنت فى النساء ، ومباركة ثمرة بطنك ، لأنك ولدت لنا مخلّصا يا والدة الإله . مباركة لا تغفلى عن وسيلتنا . ونحن من المعاطيب فى هذه الصلاة » ، وغير ذلك (١٨) .

وفى كتاب « المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمة الله الهندى والدكتور القسيس فندر » أنه كانت هناك فى القرون الأولى من تاريخ النصرانية فرقة تسمى « كولى رى دينس » تقول إن الآلهة ثلاثة : الأب والابن ومريم ، وأن هذا القول ربما كان مكتوبا فى إنجيلهم (١٩) . ويبدو أنها هى الفرقة التى ذكرها محمد حميد الله كما سنرى بعد أسطر قليلة .

ويقول عبد الله يوسف على العلامة الهندى وصاحب الترجمة الإنجليزية الشهيرة للقرآن الكريم إن عبادة مريم ، التى ألغاها البروتستانت ، كانت واسعة الانتشار بين النصارى الأوائل فى المشرق والمغرب (٢٠) . كذلك ذكر محمد حميد الله ، فى ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم تعليقًا على آية سورة « المائدة » التى يدور الكلام

فى هـذه الصفحات حولها ، أن الإشـارة فى الآيـة خاصـة بطائفـة الـ «Corydiens» وغيرهم ممن يضعون مريم فى مرتبة أعلى من مرتبة البشرية (٢١) .

والخلاصة أن القرآن حينما ذكر أن هناك من يعبدون مريـم إنما يقرر حقيقة تاريخية لا سبيل إلى الشك أو المراء فيها . أما الذين يعترضون على ذلك ويكذبونه ، بصريح القول أو اللحن فيه ، فإن اعتراضهم هذا لا يغنى من الحق شيئًا . وسواء بعد ذلك أكان النصارى هم الذين يعبدونها أم أن فرقة ضالة لا تُعدّ منهم ، كما يدّعى البعض ، هى التى كانت تقول هذا (٢٢) . ذلك أن القرآن لم يتعرض لهذه النقطة الفرعية ، إذ كل ما قاله هو أن من الناس من كان يتخذ عيسى ومريم إلهين من دون اللّه ، مكتفيا بالإشارة إلى فريتهم التى يردّدونها دون أن يهتم بتصنيفهم .

الهوامش

١- المائدة / ١١٦ .

٢- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٠٣ - ٣٠٤ .

3- E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam , Vol. V, p. 311 .

٤- الأنبا شنودة / مقال « القرآن والمسيحية » / مجلة « الهلال » المصرية / ديسمبر ١٩٧٠ م / ٢٦ .

٥- الموسوعة العربية الميسرة / ١٦٨٩ .

٦- انظر ابن تيمية / الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / ١ / ١٧١ - ١٧٢ و ٣ / ٢٢ ، ود. على عبد الرحمن وافى / الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام / ١٠٧ .

7 - Dictionary of the Bible , ed. by William Smith , London , 1863 .

8 - E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam , Vol. V , p. 311 .

9 - Encyclopaedia of Religion and Ethics , ed. by James Hastings , Vol. 8 , pp. 474 - 480 .

10 -Encyclopaedia Britannica - Macropaedia , 15th ed., Vol. 11 , pp. 560 - 562 .

11- Collier's Encylopaedia , Vol. 15 , p. 470 .

١٢- ول ديورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ١١ / ٢٧٥-٢٧٦ .

١٣- القمص زكريا إبراهيم / الله واحد فى الثالوث المقدس / ٤١ .

١٤- انظر د . رءوف شلبى / يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء / ٢١٢ .

١٥- « تفسير القرآن » لعبد الرزاق بن همام الصنعانى / تحقيق د . مصطفى مسلم / ٢ / ٨ ، وتفسير ابن كثير / ٢ / ١٢٢ .

١٦- أبو محمد عبد الله الترجمان الميورقى / تحفة الأريب فى الرد على أهل

الصليب / دراسة وتحقيق وتعليق عمر وفيق الداعوق / ١٣٩ - ١٤١ .

١٧- انظر « الفصل في الملل والأهواء والنحل » / تحقيق د . محمد إبراهيم نصر ود . عبد الرحمن عميرة / ١ / ١١٠ ، و ٢ / ٢٠٥ .

١٨- القرافي / الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة / تحقيق د . بكر زكي عوض / ٣٥٦ - ٣٥٧ . وانظر ابن تيمية / الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح / ٣ / ١٩٣ ، وكذلك ابن قيم الجوزية / هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / تعليق مصطفى أبو النصر الشلبي /٢٦١ - ٢٦٢ .

١٩- انظر « المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمة الله الهندي والدكتور القسيس فندر » / تحقيق د . محمد عبد القادر خليل / ٢٧١ - ٢٧٢ .

20 - Abdullah Yusuf Ali . The Holy Quran , 280 , n. 829 .

21 - Muhammad Hamidullah . Le Saint Coran , p. 161 .

٢٢- مثلما رأينا عند القمص زكريا إبراهيم . ومن الذين ادعوا هذا أيضا إسكندر جبد المرشد الروحاني لمركز الشبيبة في لبنان (انظر إبراهيم سليمان الجبهان / معاول الهدم والتدمير في النصرانية وفي التبشير / ١٤١ - ١٤٢) .

٣- عُزَيْر

ويزعم النصارى أن من الأدلة على بطلان القرآن الكريم ادعاءه على اليهود القول بأن عُزَيْرًا ابن الله ، مع أن اليهود لو كانوا قالوا ذلك ما جحدوه من دينهم ولا أنكروا قولهم إياه (١) .

والذى ورد فى القرآن عن هذا الموضوع هو قوله جل شأنه : « وقالت اليهود : عُزَيْرٌ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله ! أنّى يُؤْفكون ؟ » (٢) . وسبب نزول هذه الآية فيما يختص باليهود أن بعض زعمائهم قد أتوا النبى صلى الله عليه وسلم يحاجّونه ويذكرون السبب الذى يمنعهم من قبول ما يعرضه عليهم من الدخول فى الإسلام ، قائلين : « كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله ؟ » (٣) .

ومن هذا يتبين أن الذين قالوا بذلك كانوا من يهود المدينة وأن القرآن قد سجّل ذلك عليهم . وقد سمع أولئك اليهود بما نعاه عليهم القرآن وخرسوا . ولو أنهم لم يقولوا هذا لاعترضوا على النبى عليه السلام ولشنّعوا عليه وعلى القرآن الكريم ، إذ إن هذه فرصة ثمينة بل سيف بتار قاتل ما كانوا ليهملوه ، بل بالحرى كانوا يمتشقونه ليطعنوا

به الدين الجديد طعنة نجلاء تكفل لهم الانتصار عليه فى الحرب النفسية المتأججة التى كانوا يشنونها على محمد صلى الله عليه وسلم . فالزعم إذن بأن اليهود قد أنكروا ذلك هو زعم باطل ، فهم لم ينكروه . ولو كانوا قد أنكروه لتحدث عنه القرآن أو لروته على الأقل الأحاديث وكتب التاريخ ، كما حدث مع عدى بن حاتم ، الذى أبدى دهشته لقول القرآن ، عقب الآية السابقة مباشرة ، عن أهل الكتاب إنهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، فبيّن النبى عليه السلام أنهم قد حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم ، وهذه هى عبادتهم إياهم (٤) . ومعروف أن بولس قد نسخ شريعة التوراة (٥) ، وأن كتبة الأناجيل قد ادعوا أن المسيح قد جعل ما يحله رسله على الأرض محلولا فى السماء وما يربطونه على الأرض مربوطًا فى السماء (٦) . كما أن البابوات كان يبيعون لرعاياهم صكوك الغفران ، والغفران هو من أخص خصائص الله سبحانه . وما زال النصارى حتى الآن يذهبون إلى القساوسة ليعترفوا لهم بما اجترموه من مآثم فيغفروها لهم . وما أكثر النسوة والفتيات اللائى يقصدن القسيس فى الكنسية على انفراد فيخلو بهن فى جوها الصامت المظلم ويسمع منهن تفصيلات الفواحش

التى يقترفنها دون حياء من الطرفين ! ودعنا مما يمكن أن يحدث فى مثل هذه الظروف المثيرة المريبة . كما أن النصارى يسجدون لتماثيل قديسيهم ويصومون لهم . أما اليهود فقد أجمع أحبارهم مثلا على أن من يشتم الله أو الأنبياء يؤدَّب ، أما من يشتم الأحبار فيُقتَل (٧) . وفى التلمود أن خلافًا علميا وقع بين الله وأحبار اليهود حكم فيه أحد الحاخامات لصالح الأحبار ، واعترف الله بخطئه (٨) ، وأنه سبحانه يستشير الخامات عندما تقابله مشكلة (٩) ، وأن مخافة الحاخامات هى بمثابة مخافة الرب نفسه (١٠) ، علاوة على تبديل التلمود كثيرا من شرائع التوراة ... إلخ .

وقد ذكر الجاحظ أن فريقا من بقايا القائلين ببنوة عُزَيْر لله سبحانه كانوا لا يزالون فى عصره باليمن والشام وداخل بلاد الروم (١١) . وقد ورد عند ابن حزم أن الذين كانوا يقولون ذلك هم طائفة الصدوقيين باليمن (١٢) . وكانت بينه ، رحمه الله ، وبين مواطنه ابن النغريلة اليهودى مجادلات من هذا النوع ، فلم لمْ يكذّبه فيما قاله من أن طائفة من بنى دينه تدين ببنوة عزير لله ؟ وقد رأينا قبل قليل كيف أن النصارى الذين يعملون على تخطئة القرآن ، ومنهم قساوسة ومبشرون متبحرون فى دينهم ، مازالوا يدّعون أنه لا يوجد

نصرانى واحد يعبد مريم ، وذلك رغم ثبوت صحة ما قاله القرآن الكريم فى هذا الصدد. وقد أسلم عدد من يهود المدينة على يد النبى عليه السلام ولم يحدث أن أحدًا منهم قد استغرب هذه الآية أو استوضحها النبى مجرد استيضاح .

وقد جاء فى الروايات أن ابن عباس باحث يومًا عبد الله بن سلام (وهو يهودى أسلم عقب هجرة النبى عليه السلام إلى المدينة) فى قول الله تعالى : « وقالت اليهود : عُزيرٌ ابنُ الله » وسأله : لم قالوا ذلك ؟ فذكر ابن سلام ما كان من كتابة عزيرِ التوراة لبنى إسرائيل من حفظه وقول بنى إسرائيل حينذاك : لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب ، أما عزير فقد جاءنا بها من غير كتاب ، فغلتْ فيه طوائف منهم وقالوا إنه ابن الله (١٣) .

وقد أقرّ القسّيس الذى ناظره فخر الدين الرازى فى أمر الإسلام والنصرانية بأن بعض اليهود قد قال ذلك فعلاً . وكل ما عقّب به هو أنه « لا يلزم من قول واحد فى وقتٍ ما قول الجميع فى جميع الأوقات » (١٤) . وقد وضح الرازى له أن قوله تعالى : « وقالت اليهود : عزيرٌ ابن الله » لا يقتضى فعلاً أن يكون إخبارًا عن الكل ولا فى كل وقت (١٥) . وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول

إليهم يراد به بعضهم لا كلهم . وذكر رشيد رضا أن القاعدة فى الأقوال والأفعال المسندة فى القرآن إلى جملتهم رغم أنها صادرة عن بعضهم فقط هى الإشارة إلى أن الأمة تُعدّ متكافلة فى شؤونها العامة ، وأن ما يفعله بعض الفرق والجماعات أو الزعماء يكون له تأثير فى جملتها ، وأن المنكر الذى يفعله بعضهم يؤاخذ الجمهور به ما داموا لم ينكروا عليهم أو يحاولوا إزالته ، وذلك مثلما يصيب الوباءُ مجموع الناس ولا يقتصر على مرضاه الأصليين (١٦) . على أنه يمكن أن تكون الألف واللام الداخلة على لفظة « اليهود » فى الآية السابقة هى « أل » العهدية لا الجنسية ، ويكون اليهود فيها من ثَمّ يهودًا معينين ، وليس كل اليهود ، أو يكون الكلام على التوسّع كما يحدث كثيرا فى مثل هذه الحالة .

وفى « تفسير عثمانى » (باللغة الأوردية) للعلامة شبير أحمد عثمانى أن عالمًا هنديا اسمه الحاج أمير شاه خان لقى فى فلسطين ، أثناء زيارته لها (قبل بضع عشرات من السنين) ، بعض اليهود ممن ينتمون إلى فرقة اسمها « العُزيْريّون » لا تزال تعتقد أن عزيرا ابن الله (١٧) . وقد رأينا قبل قليل ما ذكره ابن حزم من أنّ الذين كانوا يقولون ذلك كانوا يعيشون فى اليمن . وهذا وذاك

يؤكدان ما جاء عند الجاحظ من أن بقاياهم كانوا باليمن والشام وبلاد الروم .

وقد ذكر د. عبد المنعم الحفنى فى « الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية » جماعة اليهود الذين يزعمون أن عزيرا هو ابن الله ، وهم طائفة الصدوقيين (١٨) .

ولعل بعض الناس يستغربون أن يكون من اليهود من ينسب لله ابنا ، إذ المشهور أن الذين يقولون بذلك إنما هم النصارى ، أما اليهودية فديانة توحيد . ولكن الحقيقة ليست كذلك ، لأنه إذا كان النصارى قد ادعوا أن المسيح ابن الله فإن اليهود قد ادّعوا هذه البنوة لأكثر من شخص . وما عُزَيْر إلاّ واحد من هؤلاء . وقد ذكره القرآن بالاسم لأن بعض يهود المدينة قد عيّنوه فى جدالهم مع النبى صلى الله عليه وسلم تعيينا .

ومن ذلك ما جاء فى العهد القديم من « أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا ... وبعد ذلك ... دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا » (١٩) . كما نسب مؤلفو هذا الكتاب إليه سبحانه زورا قوله لبنى إسرائيل : « أنتم أولاد للرب إلهكم » (٢٠) ، وكذلك قوله عن

إسرائيل إنه « ابنه البكر » (٢١) . وفى سفر « أيوب » نقرأ أنه قد « جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب » (٢٢) ، و « ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله » (٢٣) . ويقول كاتب المزامير (٢ / ٧) إن الله قال لداود : « أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتُك » . وتجعل الآية ٢٦ من المزمور السابع والثلاثين للّه نسلاً . وتتكلم الآية ٧ من المزمور التاسع والثمانين عن « أبناء الله » . وفى المزمور التاسع والثمانين يقول الله عن داود عليه السلام فيما يزعمون : « هو يدعونى أبى أنت ... أنا أيضا أجعله بِكْرا أعلى من ملوك الأرض » (٢٤) . وفى « إشعياء » يضعون على لسان الله الكلام التالى : « لأنه يُولد لنا ولد ونُعْطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويُدْعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام » (٢٥) . ويبتهل إشعياء لله قائلاً : « أين غيرتك وجبروتك . زفير أحشائك ومراحمك نحوى امتنعت . فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم وإن لم يدرنا إسرائيل . أنت يا رب أبونا وليّنا منذ الأبد اسمك » (٢٦) . وفى سفر « إرميا » يقول كاتبه مسندا الكلام إلى الله تعالى : « صرتُ لإسرائيل أبًا ، وأفرايم هو بكرى » (٢٧) . وفى « هوشع » يوصف بنو إسرائيل بأنهم :

« أبناء الله الحىّ » (٢٨) . وفى التلمود أن أرواح اليهود تتميز عن سائر أرواح البشر بأنها جزء من الله مثلما أن الابن جزء من أبيه (٢٩) . وغير ذلك كثير . وقد سجّل القرآن زعمهم (هم والنصارى) أنهم « أبناء الله وأحباؤه » (٣٠) .

ولم يكتف اليهود بأن جعلوا لله أبناءً ، بل جعلوا له سبحانه أيضا زوجة ، إذ جاء فى المزمور الخامس والأربعين حسب الترجمة التى كانت تحت يد ابن حزم ، رحمه الله ، قول صاحب المزامير يخاطب الله تعالى : « وقفتْ زوجتك عن يمينك وعقاصها من ذهب . أيتها الابنة اسمعى وميلى بأذنيك وأبصرى وانسى عشيرتك وبيت أبيك فيهواك الملك وهو الرب والله ، فاسجدى له طوعا » (٣١) . وقد غيّر مترجمو البروتستانت فى العصر الحديث ذلك فحذفوا كلمة « زوجتك » ووضعوا مكانها لفظة « الملكة » ، كما استبدلوا بعبارة « وهو الرب والإله » قولهم : « لأنه هو سيّدك » (٣٢) . ومع ذلك فمازلنا نقرأ فى العهد القديم مثل هذا الكلام .

من ذلك ما نُسب إليه تعالى فى « إرميا » (٣ / ١ - ١٠) يخاطب الأمة اليهودية : « إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر هل يرجع إليها بعد . ألا تتنجّس تلك الأرضُ

نجاسة . أمّا أنت فقد زنيّت بأصحاب كثيرين . لكن ارجعى إلىّ ، يقول الرب ... ألست من الآن تدعينني يا أبى أليفُ صباى أنت ... وقال الرب ... : هل رأيت ما فعلت العاصيةُ إسرائيل . انطلقتْ إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك . فقلت بعدما فعلت كل هذه ارجعى إلىّ . فلم ترجع ... فرأيتُ أنه لأجل كل الأسباب إذا زنت العاصية إسرائيل فطلقتُها وأعطيتُها كتاب طلاقها لم تخف الخائنةُ يهوذا أختَها بل مضت وزنت هى أيضا . وكان من هوان زناها أنها نجّست الأرض وزنت مع الحجر ومع الشجر . وفى كل هذا أيضا لم ترجع إلىّ أختُها الخائنة يهوذا بكل قلبها بل بالكذب ، يقول الرب » .

ومثله ما زُعم ، فى سفر « حزقيال » (١٦ / ٧ - ٣٧) ، أنه تعالى قد قاله أيضا لأمة اليهود : « جعلتُك ربوةً كنبات الحقل فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان . نهد ثدياك ونبت شعْرك وقد كنت عريانة وعارية . فمررتُ بك ورأيتُك وإذا زمنك زمن الحبّ . فبسطتُ ذيلى عليك وسترتُ عورتك وحلفت لك ودخلتُ معك فى عهد ، يقول السيد الربّ ، فصرْت لى ، فحمّمْتُك بالماء ... ومسحتُك بالزيت . وألبستُك مطرّزة ونعلْتُك بالتُّخس وأزّرتُك بالكتّان وكسوتُك بزّا . وحلّيْتُك فوضعتُ أسورة فى يديك وطوقًا فى عنقك . ووضعتُ خزامة فى أنفك

وأقراطا فى أذنيك وتاج جمال على رأسك . فتحليت بالذهب والفضة ولباسك الكتانُ والبزّ والمطرّز . وأكلت السميذ والعسل والزيت وجمّلت جدا جدا فصلحت لمملكة ... فاتكلت على جمالك وزنيت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر فكان له . وأخذت من ثيابك وصنعت لنفسك مرتفعات موشاةً (٣٣) وزنيت عليها . أمرٌ لم يأت ولم يكن . وأخذت أمتعة زينتك من ذهبى ومن فضتى التى أعطيتك وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها ... فى رأس كل طريق بنيت مرتفعتك ورجست جمالك وفرّجت رجليك لكل عابر وأكثرت زناك ... أيتها الزوجة الفاسقة تأخذ أجنبيين مكان زوجها . لكل الزوانى يُعْطُون هدية . أما أنت فقد أعطيت كل محبيك هداياك ورشيتهم ليأتوك من كل جانب للزنا بك ... » .

وفى « هوشع » (٢ / ٢ - ١٦) ينسب الكاتب إلى الله سبحانه الكلام التالى : « حاكموا أمكم حاكموها لأنها ليست امرأتى وأنا لستُ رجلها لكى تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها لئلا أجزدها عريانة وأوقفها كيوم ولادتها ... ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى . لأن أمهم قد زنت ... لأنها قالت أذهبُ وراء مُحبىّ الذين يعطون خبزى ومائى صوفى وكتانى وأشربتى ... فتقول أذهبُ وأرجع إلى

رجُلى الأوّل لأنه حينئذ كان خيرٌ (٣٤) لى من الآن . وهى لم تعرف أنى أعطيتُها القمح والمسطار والزيت وكثّرتُ لها فضة وذهبا جعلوه لبعْل . لذلك أرجع وآخذ قمحى فى حينه ومسطارى فى وقته وأنزع صوفى وكتانى اللذين لستر عورتها . والآن أكْشفُ عورتها ولا ينقذها أحد من يدى ... وأخرّب كرمها وتينها اللذين قالت هما أجرتى التى أعطانيها مُحبّىَ ... وأعاقبها على أيام بعْليم التى فيها كانت تُبخّر وتتزين بخواتمها وحليها وتذهب وراء محبّيها وتنسانى أنا ، يقول الرب . لكن هأنذا أتملقها وأذهب بها إلى البرّية وألاطفها . وأعطيها كروما من هناك ... ويكون فى ذلك اليوم ، يقول الرب ، أنك تدعيننى رجُلى ولا تدعيننى بعْدَ بعْلى »

إن الإنسان ، حينما يقرأ هذ الكلام ، لا يتمالك نفسه من الرثاء لمثل هذا الزوج الواله المسكين الذى مرغتْ زوجته الزانية الخنون شرفه فى الرغام ، ولكنه لا يستطيع عنها سلوًا رغم كل سبابه القبيح لها وتهديداته إياها بالهجر والفضيحة !

وقد حدّد أرثر هرتزبرج (فى كتابه « Judaism ») الزمان والمكان اللذين تم فيهما عقد الزواج بين الله وإسرائيل حسب افتراءات اليهود فقال إن ذلك كان فى سيناء حين تجلى الله لموسى وبنى

إسرائيل . وأضاف أن السماوات والأرض كانت شهود ذلك العقد (٣٥) . ويقول ول ديورانت إن « نشيد الإنشاد » المنسوب لسليمان (وهو نشيد يفوق قصائد الشعراء الداعرين فى عُرْيه وإثارته للشهوات وإغرائه بالفجور) هو فى اعتقاد اليهود ترنيمة مُوحاة من السماء لتصور تصويرا مجازيا اقتران يهوه بإسرائيل عروسه المختارة (٣٦) .

هذا عن بنوة عُزيْر لله التى ادعاها له فريق من اليهود وحكاها عنهم القرآن الكريم . لكن من عزير هذا ؟ الشائع بين المفسرين والمؤرخين المسلمين (٣٧) أنه عزرا ، الذى يقول بعضهم إنه كان نبيا ، وبعضهم إنه مجرد كاهن أو كاتب . وأغلبهم ينسبون إليه أنه هو الذى أعاد كتابة التوراة بعد تلفها . وبعضهم ، كاليعقوبى ، يقول إنه حفر عنها فى بئر كانت مطمورة فيه واستخرجها ونسخها من جديد مع كتب الأنبياء الأخرى .

ويقول سبينوزا (فى كتابه « رسالة فى اللاهوت والسياسة ») إن عزرا إنما جمع الروايات المختلفة من الكتب أو المأثورات الشعبية المتداولة على الألسن ونسخها دون تحقيق أو ترتيب . ومن هنا جاءت النصوص فى معظم كتب العهد القديم منقوصة ومتعارضة ، لأن

مصادرها متعددة ولأن الكتاب الذين كانوا يعملون فى جمعها تحت إشرافه لم يطلع أى منهم على ما كتبه الآخرون (٣٨) . ويؤكد د. فؤاد حسنين عليّ أن العهد القديم لم يُجْمع كله على يد عزرا بدليل وجود أسفار فيه متأخرة عن زمنه كسفر دانيال (٣٩) .

أمّا السموأل بن يحيى المغربى (وهو حبر يهودى أندلسى كان يعيش فى القرن السادس الهجرى ودخل فى الإسلام) فإنه يحمل على عزرا حملة شديدة وينفى أنه هو عزير الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم . قال : « كان عزرا هذا خادمًا لملك الفرس حظيا لديه فتوصل إلى بناء بيت المقدس وعمل لهم هذه التوراة التى بأيديهم . فلما كان هارونيا كره أن يتولى عليهم فى الدولة الثانية داوْدِىّ فأضاف فى التوراة فصلين طاعنين فى نسب داود : أحدهما قصة بنات لوط ، والآخر قصة ثامار (٤٠) . ولقد بلغ ، لعمْرى ، غرضه ، فإن الدولة الثانية التى كانت لهم فى بيت المقدس لم يملك عليهم فيها داوْديون ، بل كانت ملوكهم هارونيين . وعزرا هذا ليس هو العُزيْر كما يُظن ، لأن الغُزيْر هو تعريب ألعازار . فأما عزْرا فإنه إذا عُرِّب لم يتغير عن حاله لأنه اسم خفيف الحركات والحروف ، ولأن عزرا عندهم ليس بنبى ، وإنما يسمونه « عزرا هوفير » ، وتفسيره : الناسخ » (٤١) .

لكنى أرجح أنه لو كان « ألعازار » هو « عُزيْزاً » لسماه القرآن الكريم « العُزيْر » (بالألف واللام) ، كما فعل مع « اليسع » (الذى أصله « أليشع ») . وقد فعل السموأل نفسه ، رحمه الله ، ذلك ، فإنه لم يكتبه إلا بالألف واللام . وفضلاً عن ذلك ، فإن جميع علماء المسلمين القدامى تقريبًا قد قالوا إنه عزرا . وعندنا رواية أوردها ابن عساكر عن عبد الله بن سلام أنه هو عزرا ناسخ التوراة ، على ما جاء فى « البداية والنهاية » لابن كثير كما مرّ بيانه . ثم إن كون عزرا نبيا أو غير نبى لا يقدم فى المسألة ولا يؤخر (٤٢) . وأخيرًا فإنه إذا كان عزير هو « ألعازار » ، فأى ألعازار ذلك ؟ ولماذا بناه اليهود لله سبحانه ؟ إن السموأل للأسف لم يجب عن هذين السؤالين المهمين برغم تبحره فى العربية والعبرية والقرآن الكريم وكتب اليهود والنصارى . وقد رجح رءوف أبو سعده أن يكون يهود المدينة الذين قالوا ببنوة عُزيْر لله قد حوّروا نطق اسمه من « عزْرا » (وهى صيغة المصدر من مادة « ع ز ر » بمعنى اسم الفاعل) إلى « عَزير » (بالإمالة ، وهى صيغة اسم الفاعل من تلك المادة) ، ثم جاء القرآن وعرّبها بصيغة التصغير العربية ، التى هى أقرب شىء إلى صيغة اسم الفاعل العبرية (٤٣) .

أما الدكتور أحمد شلبى فإنه لا يقطع بأن عزرا هذا هو عزير الوارد فى القرآن ، وإنما يكتفى بأن يقول : « يُنْسب سفر عزرا إلى عزرا الكاهن ، ويبدو أنه عزير الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم » (٤٤) .

وفى ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم يقول د. صلاح الدين كشريد عن عُزَيْر هذا إنه هو عُزّيا ، أحد الأنبياء العبرانيين الصغار الاثنى عشر (فى القرن الثامن قبل الميلاد) (٤٥) . بيد أن من الصعب جدا الاقتناع بأن « عُزير » هو تعريب « عُزَيا » .

فأمامنا إذن فى عزرا ثلاثة آراء على الأقل : أنه هو عزير ، وأنه ليس إياه ، وأنه يبدو أنه هو .

الهوامش

١- رسائل الجاحظ / ٣٠٣ - ٣٠٤ .

٢- التوبة / ٣٠ .

٣- انظر مثلا الطبرى والرازى وابن كثير فى أسباب نزول هذه الآية .

٤- روى ذلك الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى وغيرهم . وتجده مذكورا فى كثير من كتب التفسير وكتب أسباب النزول عند تناول هذه الآية .

٥- وذلك كما تبينه « رسائل بولس » (فى العهد الحديد) فى مواضع متعددة منها .

٦- انظر متى / ١٦ / ١٩ - ٢٠ ، و ١٨ / ١٨ ، ويوحنا / ٢٠ / ٢٣ .

٧- ابن حزم ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ١ / ٣٢٥ .

٨- إبراهيم خليل أحمد / إسرائيل والتلمود / ٦٥ .

٩- انظر د . صابر طعيمة / الأسفار المقدسة قبل الإسلام / ١٦٤

١٠- السابق ٤٩ .

١١- انظر « رسائل الجاحظ » / ٣ / ٣٤٦ .

١٢- انظر ابن حزم / الفصل فى الملل والأهواء والنحل / ١ / ١٧٨ وانظر كذلك كتابه « الرد على ابن النغريلة » فى « رسائل ابن حزم الأندلسى » ، تحقيق د . إحسان عباس / ٣ ، ٦٧ .

١٣- انظر ابن كثير / البداية والنهاية / ٢ / ٤٦ .

١٤- فخر الدين الرازى / مناظرة فى الرد على النصارى / تحقيق د . عبد المجيد النجار / ٣٩ - ٤٠ .

١٥- السابق / ٤٧ .

١٦- انظر محمد رشيد رضا / تفسير المنار / ١٠ / ٣٨٣ .

١٧- العلامة شبير أحمد عثماني / تفسير عثماني (بالأوردية) /٢٥٣ - ٢٥٤ . وقد ترجم لي النصَّ من الأوردية إلى الإنجليزية مشكورا صديقي د . عادل عثماني رئيس تحرير مجلة « Pakistan Library Bulletin » ، والذي يعمل منذ سنوات مديرا لمكتبة كلية التربية (فرع جامعة أم القرى) بالطائف .

١٨- الموسوعة المذكورة / مادة « الصدوقية » .

١٩- تكوين / ٦ / ٢ . ويذكر سفر « التثنية » (٣٢ / ١٩) لله بنين وبنات أيضا !

٢٠- تثنية / ١٤ / ١ .

٢١- خروج / ٤ / ٢٢ - ٢٣ . وفي سفر « التثنية » (٣٢ / ٧ مرتين) إشارة إلى هذه البنوة .

٢٢- أيوب / ١ / ٦

٢٣- أيوب / ٣٨ / ٧ .

٢٤- مزامير / ٨٩ / ٢٦ - ٢٧ . وقد رأينا قبلا أن ابنه البكر ، تعالى الله عن ذلك ، هو إسرائيل . وسنرى بعد قليل أنه أفرايم . وهو تناقض مضحك .

٢٥- إشعياء / ٩ / ٦ . وواضح مدى التناقض بين تسمية المولود « ابنا » وتسميته بعد قليل « أبا أبديا » .

٢٦- إشعياء / ٦٣ / ١٥ - ١٦ .

٢٧- إرميا / ٣١ / ٩ . وقد مرّ في سفر « الخروج » قول الله ، على زعمهم ، إن إسرائيل (لا أفرايم) هو ابنه البكر . كما رأينا في المزمور ٨٩ أنه هو داود . وهو من تناقضات العهد القديم التي لا تكاد تحصى .

٢٨- هوشع / ١ / ١٠ .

٢٩- د . أحمد شلبى / اليهودية / ٢٧١ - ٢٧٢ ، وإبراهيم خليل أحمد / إسرائيل والتلمود / ٦٧ .

٣٠- المائدة / ١٨ . ويخاطب النصارى الله فى صلواتهم قائلين : « أبانا الذى فى السماوات ... » . كما تكرر فى الأناجيل وصفه سبحانه بأنه أبوهم .

٣١- الفصل فى الملل والأهواء والنحل / ١ / ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٣٢- انظر المزمور ٤٥ / ٩ - ١١ .

٣٣- فى الأصل : « موشاة » بالكسر . وهو خطأ . وكم فى لغة الكتاب المقدس من أخطاء وركاكات !

٣٤- لفظة « خبز » هذه من الركاكات التى لا حصر لها فى العهد القديم . وهى فوق هذا خطأ . ذلك أنها إن كانت « أفعل تفضيل » كى تقبل مجىء « من » وراءها ، فيجب أن تنصب حتى تكون صفة . أما إذا رُفعت كما هى فى النص فحينئذ تكون اسما لا صفة ، ولا يصح حينئذ أن تنعقد بها مقارنة ، ومن ثم لا تأخذ حرف الجر « من »

٣٥- نظر « اليهودية » للدكتور أحمد شلبى / ٢١٣ .

٣٦- ول ديورانت / ترجمة محمد بدران / ١٤ / ١٦ . وانظر كذلك د . أحمد سوسة / مفصل العرب واليهود فى التاريخ / ٥٧٥ / هـ ٤٤ .

٣٧- مثل الطبرى والجاحظ وابن حزم والقرطبى واليعقوبى وابن كثير وابن القيم والقرافى والمسعودى ورحمة الله الهندى والألوسى ومحمد رشيد رضا ومحمد الطاهر بن عاشور ... إلخ

٣٨- انظر د . صابر طعيمة / الأسفار المقدسة قبل الإسلام / ٧٤ - ٧٥ .

٣٩- انظر د . فؤاد حسنين على / التوراة / ١٥ - ١٦ .

٤٠- تقول القصة الأولى إن ابنتى لوط كانتا تعيشان مع والديهما فى مكان منقطع عن الناس فاشتهتا الجماع والحمل فسقتا أباهما خمرا حتى سكر ونامتا معه الواحدة بعد الأخرى فى ليلتين متتاليتين . أما الثانية فتتلخص فى أن يهوذا بن يعقوب قد زنى بأرملة ابنه . ولوط ويهوذا من أجداد داود (تكوين / ١٩ / ٣٠ - ٣٨ ، و ٣٨ / ١٢ - ١٩) .

٤١- السموأل بن يحيى المغربى / إفحام اليهود / تحقيق د . محمد عبد الله الشرقاوى / ١٥١ - ١٥٣ .

٤٢- فى السفر المسمى باسمه فى العهد القديم لا يذكر عزرا أبدا على أنه نبى . إنما هو كاهن وكاتب .

٤٣- انظر رءوف أبو سعدة من إعجاز القرآن - العلم الأعجمى فى القرآن مفسرا بالقرآن / ٢ / ٢٠٦ - ٢١٠ .

٤٤- د . أحمد شلبى / اليهودية / ٢٤٢ .

45- Dr. Salah Ed-dine Kechrid , Al-Qur'an al-Karim , p. 245 , n.1.

٤- هامان

وبالنسبة لهامان يروى الجاحظ أنهم يعدّون ما قاله القرآن عنه غلطًا فى الأخبار ودليلاً على أن المسلمين يأخذون العلم عن غير الثقات ، إذ « هامان » الذى جاء ذكره فى القرآن كان معاصرًا لفرعون ، على حين أن هامان فى العهد القديم كان يعيش فى زمن الفرس (فى عهد الملك أحشويرش) بعد فرعون بدهر طويل . وذلك ، كما يقولون ، « معروف عند أصحاب الكتب ، مشهور عند أهل العلم » .

وقد جاء فى القرآن أيضا أن فرعون إنما أراد أن يبنى صرحا ليصعد فيه ويرى الله . وهم يقولون إن فرعون إن كان كافرا بالله فما معنى اتخاذه صرحا ليرى شيئا لا يؤمن بوجوده ؟ وإن كان مقرّا بوجوده سبحانه فإما أن يكون من المشبّهة ، فكيف فاته أن من المستحيل بناء صرح ينفذ من السماوات السبع حتى يصل إلى العرش الإلهى ؟ وإما أن يكون من نفاة التشبيه ، فكيف يخطر على باله البحث عنه سبحانه فى مكان بعينه ؟ وعلى أية حال فلم يكن فرعون مجنونا أو ناقص العقل حتى يفكر فى هذا الأمر أصلاً (١) .

ويرى القارئ أن أصل التهمة يقوم على أن الرسول عليه السلام

هو الذى ألّف القرآن ، وأنه قد استقاه من الأخبار الملفقة والروايات المضطربة التى لا يعرفها التاريخ . ونحن نقول إنه إذا انتفت نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فلن تكون هناك نبوة أخرى جديرة بالتصديق ، فإن أخلاقه وصدقه وأمانته (برغم كل ما يرميه به الكافرون بدينه) هى أفضل وأزكى وأقوم ممّا يصف به كتابُ القوم المقدّسُ أنبياءهم ، فقد نسب إليهم هذا الكتاب الزنا والفجور وشرب الخمر والكذب والقتل وعبادة الأصنام والدياثة ومضاجعة المحارم ... إلخ . ويستحيل أن يدعوا شيئا من هذا عليه صلى الله عليه وسلم مجرد ادعاء .

وقد أشارت إلى هذا الاختلاف بين هامان فى العهد القديم وبين هامان فى القرآن الكريم « دائرة المعارف الإسلامية » فقالت فى طبعتها الأولى تحت عنوان « هامان » : « إن وضع محمد لهامان فى هذه الفترة (أى فى عهد فرعون) يفضح اضطراب معرفته للتاريخ ، ذلك الاضطراب الذى يوجد فى القرآن أمثلة كثيرة عليه . وفى الحقيقة فإن التلمود (Sanh. 106) والمدراس (Exodus R. 18) يحتويان على خطإ تاريخى مشابه ، إذ يجعلان بلعام وأيوب ويثرون جميعًا أعضاء فى مجلس شورى فرعون ، الذى كان من رأيه التخلص من موسى . وهناك نص آخر فى المدراس (Num. R. 22) يصف هامان

وقارون بأنهما أغنى رجلين فى الدنيا » (٢) . أما فى الطبعة الجديدة التى مازالت تصدر حتى الآن فقد خفت حدة الهجوم على القرآن واختُصرت المادة إلى حد كبير(٣). ولعل ذلك بداية التراجع عن انتقادهم للرسول الكريم عليه السلام والكتاب الذى أُنزل عليه فى هذه النقطة .

كذلك أشار إلى هذا الاختلاف القس توماس باتريك هيوز فى كتابه « Dictionary of Islam » ، إذ قال : « يظن بعض النقاد الأوربيين أن محمدا قد جعل من هامان ، الذى كان وزيرا مقربا إلى الملك أحشويرش وعدوًا لليهود ، وزيرا لفرعون . ويقول الأحبار إن هذا الوزير هو قارون أو يثرون أو بلعام » (٤) .

ومازال القوم يظنون أنهم يستطيعون التشنيع بذلك على المسلمين وكتابهم ، فقد ردّدت هذه التهمة مؤخرا رسالة نصرانية فى الهجوم على القرآن الكريم تحمل اسم المجلس الملىّ القبطى بالإسكندرية (٥) .

وقد أصبح معروفا لكل مهتم بالكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى أن هذا الكتاب غير أهل للثقة ، إذ يختلط فيه الحابل بالنابل ، ويزدحم بالأخطاء التاريخية والرياضية والعلمية ، ويعج بالمتناقضات حتى فى الصفحة الواحدة فى أحيان كثيرة . وقد أُلِّف فى بيان ذلك ما لا يُحصى من الكتب والرسائل بأقلام مفكريهم ورجال

دينهم قبل غيرهم .

ولسوف أكتفى هنا بذكر بعض ما تنبهت إليه من هذه الأخطاء والتناقضات فى سفر « أستير » ، وهو السفر الذى جاء فيه ذكر هامان الفارسى وزير الملك أحشويرش . وهذه الملاحظات هى ثمرة قراءة سريعة لهذا السِّفر .

وسوف أُعدّى عن ركاكة الأسلوب فى القصة ، وبالذات الفقرة الأولى منها حيث تتعثكل الجمل فى يد الكاتب وتتمزق خيوطها فيدور حول نفسه يكرر ما سبق أن قاله كى تستقيم له العبارة بعض الاستقامة ، وهيهات ! ولا يُعْقل أن يكون مثل هذا الكلام الردىء الأسلوب وحيًا من عند الله . ولا يُعْقل أيضا أن ينزل وحى سماوى يبارك الدعارة والتوسل بها إلى غزو القصور الملكية واقتناص قلوب الأباطرة والتفنن فى إسالة لعابهم وقوْدهم من أنوفهم للوصول إلى ما يراد منهم من الأغراض السياسية . لا ، ليس يُعْقل أن توحى السماء لنبى (أو حتى لشيطان) مثل هذا الكلام !

ويتلخص سفر أستير فى أن أحشويرش ملك الفرس أراد من زوجته أن تظهر معه فى أحد الأعياد كى يرى الناس أبهتها وجمالها وزينتها ، لكن الملكة رفضت ذلك ، فما كان منه إلا أن غضب عليها

وطلقها ، ونشر مرسومًا فى طول البلاد وعرضها بهذا . ثم زيّن له بعض رجال حاشيته أن يجمعوا كل من فى إمبراطوريته المترامية الأطراف من عذارى فاتنات ليختار منهن من يرقن له . وكان من أولئك الفتيات أستير اليهودية ، التى بعد أن قضى معها الملك ليلة داعرة استحوذت على قلبه فقربها إليه وتزوجها . وكان هناك وزير لهذا الملك اسمه هامان اضطغن على مردخاى ابن عم أستير هذه دون أن يعرف بالقرابة التى بينها وبينه ، فأراد أن يهلك كل اليهود الذين بالبلاد . بيد أن مردخاى يتصل بأستير ويعلمها بالمصيبة التى ستحل باليهود ، ويدبر معها مؤامرة توقع بالوزير فى ما أراد أن يصنعه بمردخاى ، فيُصلّب هو وبنوه على نفس الخشبة التى كان قد أعدّها لصلب ذلك اليهودى عليها . وينتفش اليهود فى البلاد ويعملون السيف فى الرقاب ويقتلون عشرات الآلاف ويجعلون من اليوم الذى بشموا فيه وارتووا من الدماء عيدًا لهم يحتفلون به فى كل عام . ويجعل الملك مردخاى رئيسًا لوزرائه واضعًا فى يده كل شىء .

والتعمل ظاهر فى القصة أشد الظهور . ومن ذلك أن للعدد « سبعة » سيطرة على سائر عناصرها : فالملك لا يفكر فى استدعاء زوجته لإبراز فتنتها وزينتها للناس إلا فى اليوم (السابع) من بدء

الاحتفالات بتوليه الحكم ، وعدد الخصيان فى قصر الإمبراطور سبعة ، وعدد مستشارى الملك (أو ، كما يقول مؤلف القصة ، الحكماء العارفين بالأزمنة) سبعة ، وعدد الفتيات اللاتى اصطفين للملك اصطفاء من بين آلاف العذارى الجميلات المجموعات من أنحاء المملكة سبع . ثم إن أستير قد دخلت على الملك فى السنة السابعة من جلوسه على العرش . وولايات الإمبراطورية مائة و (سبع) وعشرون ولاية .

ويظهر التعمل أيضا فى أن الملك ، حين يريد من زوجته الظهور أمام الجمهور ، لا يكلمها بنفسه فى ذلك بل لا يرتبه مستقا كما تقضى به تقاليد الملوك ، بل ينبت هذا الخاطر فى دماغه فجأة بعد أن لعبت الخمر بعقله ، أو بعبارة ملفق القصة : « لما طاب قلب الملك بالخمر » . ليس هذا فحسب ، بل إنه لا يجد إلا خصيان القصر ليرسلهم إلى الملكة كى تحضر ، وكأنها امرأة من عرض الطريق أو بائعة فى السوق . ولا يخجل مؤلف القصة من القول بأن الملك إنما أراد الإتيان بالملكة وعلى رأسها تاج الملك « ليرى الشعوب والرؤساء جمالها ، لأنها كانت حسنة المنظر » . وهذه ليست عادة ملوك الشرق ، وبخاصة فى ذلك الزمن القديم . وقد أبت الملكة أن تأتى ، وحق لها . ولكن الملك ، على ما تقول القصة ، يستشيط غضبا .

وتظل حاشية السوء توسوس له وتنفخ فى أنفه مهولة فى عينيه صنيع الملكة وموهمة له أنه إذا لم يطلقها فسوف تكون مثلا سيئا يغرى نسوة المملكة بعصيان أزواجهن والخروج على سلطانهم . وفعلاً يطلقها الملك . وواضح ما يرمى إليه ملفق القصة . إنه يمهد الطريق أمام أستير لتعتلى العرش وتحكّم أيدى قومها فى رقاب الفرس ، الذين كان اليهود يعيشون بين أظهرهم . بيد أن أصول الفن القصصى تقتضى التشويق والتطويل والوصف المدغدغ للشهوات ، فنقرأ أن بعض رجال الحاشية اقترحوا على الإمبراطور أن تُجّمع له من أنحاء البلاد بولاياتها المائة والسبع والعشرين كل عذراء جميلة كى ينتخب منهن واحدة تحل محل الملكة المطلّقة . وللقارىء أن يتصور كم يبلغ عدد هؤلاء الفتيات ، وكيف سيكون زحامهن عندما يتجمعن كلهن فى القصر قبل أن تُنّتخب منهن سبع يدخلن على الملك واحدة بعد واحدة ، فى كل ليلة واحدة يقضى معها العاهل الليل بطوله ، وفى النهاية يقرر أيتهن التى تصلح له .

ويقول مؤلف القصة إن الخصى الموكَل بهذا الأمر كان ينفق سنة كاملة فى تهيئة الفتاة لقضاء ليلتها مع الملك : ستة أشهر فى تعطيرها بزيت المر ، وستة أشهر بالأطياب والأدهان . وتفوز أستير دون الفاتنات

جميعًا بقلب الملك ويتخذها زوجة . وتكتم حقيقة يهوديتها عنه كما أوصاها مردخاى .

ويعلم مردخاى بمؤامرة كان يدبرها اثنان من خصيان الملك لقتله . وتبدو سذاجة القصة فى قولها إنه علم بذلك وهو جالس على أبواب القصر ، وكأن باب القصر مكان يتجمع عنده كل عاطل ليس عنده عمل يشغله . ثم متى كانت المؤامرات تدبّر على باب القصور ؟ بل كيف يفكر خصيّان لا حول لهما ولا قوة ولا أتباع ولا عزوة فى قلب نظام الحكم فى إمبراطورية عريقة كإمبراطورية الفرس ؟

على أية حال فإن مردخاى يقوم بنقل السر إلى أستير ، التى تخبر بدورها الملك فيقبض على الخصيين ويحقق معهما ويصلبهما . وتدوّن الحادثة فى حوليات المملكة .

وكان هامان رئيس الوزراء ، عند دخوله على الملك أو خروجه من لدنه ، يسجد له حسب أوامر الإمبراطور الموظفون الذين بباب القصر . أما مردخاى فقد أصرّ على ألا يجثو أو يسجد ، رغم أنه مجرد أجنبى غريب ، وفوق ذلك يهودى مستضعف . ويمتلىء هامان غضبا ، ولكنه لا يفكر فى الانتقام من مردخاى وحده بل من يهود المملكة جميعًا ، ويعطيه الملك تفويضا مطلقا بعمل كل ما يريد بهم .

ويعلم مردخاى بالأمر . وكان المفروض أن يكون علمه به عن طريق الملكة ابنة عمه ، التى لابد أن يطلعها الملك على الأمر . أليست زوجته ؟ أليس الملوك يتحدثون عادة أول ما يتحدثون إلى زوجاتهم ؟ لكن معرفة مردخاى بهذا القرار لم يكن عن طريق أستير ، بل كان هو الذى أعلمها به . أمّا كيف توصّل إلى إخبارها بما علم فتقول القصة إنه لبس مسحًا وذهب وهو يصرخ وينوح إلى باب القصر فرأته جوارى الملكة وخصيانها ، الذين أسرعوا وحكوا لها ما شاهدوا وما سمعوا .

وتخطط أستير ، بتحريض من ابن عمها ، لإحباط مؤامرة هامان والإيقاع به فى نفس الشّرك الذى كان قد نصبه لمردخاى وقومه . ويتصادف ، ويا للعجب ، أن يصاب الملك فى ذلك الوقت بأرق لا يجد ما يذوده به عن نفسه إلا إحضار حوليات المملكة والقراءة فيها . ويتصادف أن يقرأ فيها قصة المؤامرة التى دبرها له الخصيّان وكشف أمرها مردخاى . ويتذكر الملك عندئذ ، وعندئذ فقط ، أنه ينبغى مكافأة الرجل . ويتصادف أيضا عند ذلك ، ويا للعجب ، دخول هامان على أحشويرش ، الذى يبادره بالسؤال عما ينبغى فعله لرجل يسرّ الملك أن يكرمه . ويظن هامان أن الملك يقصده فيشير عليه بأن يلبسه ملابسه السلطانية ويخلع عليه تاجه ويركبه على فرس تطوف به ساحة

المدينة وأمامه الخدم ينادون ، فيأمره الملك عندئذ أن يسرع فيفعل هذا بمردخاي اليهوديّ . وللقارىء أن يعجب من الأسلوب الذى اتبعه الملك فى إخبار وزيره بما يريد وكأنه يلعب لعبة « حاورينى يا قطيطة » ، فيلف ويدور قبل أن يصارحه فى النهاية باسم الشخص المراد تكريمه . إنها هى هى حبكة القصص الشعبى ، وبالذات كما نعرفه فى « ألف ليلة وليلة » . ولا ننس أن « ألف ليلة وليلة » هى فى أصلها الأول عمل فارسى هندى . وقد كان أحشويرش ، كما جاء فى قصة أستير ، ملكًا على بلاد فارس والهند جميعا .

وفى وليمة كانت أستير قد أعدتها لأحشويرش ومعه هامان يعرض الملك عليها أن تطلب أى شىء تريد ، حتى لو كان ذلك نصف المملكة ، كى يحققه لها فى الحال ، فتخبره بالحقد الذى يكنه هامان لشعبها ، فيقوم الملك مغتاظًا ويخرج إلى حديقة القصر تاركا زوجته مع وزيره ، الذى أكبّ عليها يستعطفها على سريرها . وساعتها يعود الملك فيجده على هذا الوضع فيظن أنه يراودها عن نفسها . وواضح مدى السذاجة فى ترتيب أحداث القصة على هذا النحو الذى يهىء المؤلف به الظروف لإيقاع النكال بالوزير . ويأمر الملك بصلب هامان وتمكين مردخاي وشعبه من أعدائهم ، فيقتلون عشرات الألوف بما فيهم

الأطفال والنساء ، وفى مقدمتهم هامان وآبناؤه ، ويستولون على أموالهم وممتلكاتهم . وهى نهاية تذكرنا بنهايات القصص الشعبية حتى إنه لم يبق إلا أن يقال : « وعاش اليهود فى تبات ونبات ، وخلّفوا صبيانا وبنات ! » .

فهذه هى القصة التى يريد المعترضون على كتابنا أن يحاكموه إليها . إنها لا يمكن أن تكون وحيًا ، فليس من المعقول أن يكون موضوع الوحى مثل هذا القصص الجنسى ولا أن يكون أسلوبه بالركاكة التى أشرت إليها . وكذلك يمنع من الاطمئنان إليها كتاريخ ما فيها من تعمل زائد ومصادفات متكررة ومجافاة لمنطق العقل والأحداث . إن روح الحواديت وحبكتها الفنية واضحان فيها أشد الوضوح .

ويشكك د. أحمد شلبى فى هذه القصة ، مؤكدا أنها ليست من التاريخ فى شىء . « إنما هى أسطورة يرسم بها مؤلفها الطريق للنساء الإسرائيليات أن يتخذن من جمالهن وسيلة لخدمة بنى إسرائيل وخدمة أغراضهم » (٦) . ويعزز هذا الرأى ما لوحظ من أن عزرا ونحميا (وهما من أنبياء العهد القديم ، ولكل منهما فيه سفر قصّ فيه أحداث السبى البابلى) لم يشيرا إلى أستير ولا إلى شىء مما جاء فى السفر المسمى باسمها . كما أن هيرودوت ، مؤرخ الإغريق الذى عاصر

الإمبراطور الفارسى أحشويرش وكتب سيرة حياته وحكمه ، لم يذكر شيئا مما ذكرته هذه القصة (٧) . ويذهب بعض الباحثين إلى أن القصة يمكن أن تكون فى الأصل أسطورة بابلية أخذها اليهود وحرّفوها لتوائم أغراضهم ، إذ إن هامان هو اسم أحد الآلهة العيلاميين ، كما أن مردخاى هو اسم إله كلدانى . أما اسم أستير فليس بعيدًا أن يكون تحريفا للإلهة عشتار (٨) (التى يُنْطق اسمها أيضا « أشتار » و « أستير » و « عشتروت ») . ولعل هامان الوزير المصرى الذى كان يساعد فرعون فى اضطهاد بنى إسرائيل قد اختلط بشخصية ذلك الإله العيلامى القديم وخرجت من هذا المزيج تلك القصة التى يقصها علينا كاتب سفر أستير .

ولعلّ من المفيد أن نشرح للقارىء كيف يوصى أحبار اليهود شعبهم بالاحتفال بعيد البوريم ، وهى المناسبة التى تقول هذه القصة إن الله قد نجّى فيها اليهود وأوقع بأعدائهم على يد أستير ومردخاى . « يقول رب ربا Rab Raba إن على الإنسان أن يشرب فى ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قولهم : ملعون هامان ، وملعون موردخاى » (٩). وهى طريقة فى الاحتفال تناسب تمامًا ما فى القصة من جنس وخمر ومؤامرات سياسية تحيكها أيدى البغايا والقوادين .

وفى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى نجد نساءً أخريات يقمن بنفس هذا الدور الذى قامت به أستير ، مثل يهوديت ، الأرملة الجميلة التى لها سفر باسمها كسفر أستير فى نسخة « العهد القديم » الكاثوليكية ، وسالومى ، التى رقصت عارية أو شبه عارية لعمّها الوالى بتحريض من أمّها الفاجرة حتى سال لعابه وفقد عقله وهو يراها بكل شبابها وفتنتها تتلوى أمام عينيه فقدّم لها رأس يحيى عليه السلام على طبق حسبما أرادت كى يخلو الجوّ لها ولأمها للفجور مع ذلك العم النذل ، كما جاء فى العهد الجديد .

على أننا نحبّ أن ننظر أيضا فيما سجّله العهد القديم من أحداث الفترة التى سكن فيها بنو إسرائيل مصر منذ أن هاجر إليها يعقوب عليه السلام وأولاده إلى أن خرج موسى وقومه منها . ذلك أن هامان قد ورد ذكره فى القرآن الكريم فى آخر حلقة من حلقات سكنى الإسرائيليين فى مصر ، وهو ما ينكره المعترضون على كتابنا المجيد بحجة أنه لم يجىء له ذكر فى سفر « الخروج » فى العهد القديم ، فنريد أن ننظر فيما رواه كتاب القوم عن بنى إسرائيل فى بلاد الفراعنة لنرى مقدار ما فيه من استقامة أو انحراف ونعرف إلى أى مدى يمكن الركون إلى ما يقول واتخاذه مستندًا تاريخيا يعوّل عليه .

وقد قرأت قصة بنى إسرائيل فى مصر كما جاءت فى العهد القديم قراءة سريعة فخرجت منها ببعض الأشياء التى يجب عرضها على القارىء كى يكون على بيّنة من أمر كتابهم المقدس الذى يريدون أن يحاكموا القرآن إليه . وقبل أن أعرض ملاحظاتى أسوق ما وجده علامة الأندلس ابن حزم العظيم فى العهد القديم من خطإ فاحش وقع عند حساب المدة التى قضاها بنو إسرائيل فى مصر القديمة . وذلك أنهم يقولون إن قاهات بن لاوى بن يعقوب دخل مصر مع أبيه وجده وعمره ١٣٣ سنة ، وإن عمران بن قاهات عاش ١٣٧ سنة ، وإن موسى بن عمران خرج مع بنى إسرائيل من مصر وهو ابن ثمانين سنة (١٠) . فلو افترضنا أن قاهات دخل مصر فى أول حياته ، وأن كلاّ من عمران وموسى وُلد بعد وفاة أبيه لكان مجموع السنين التى قضاها بنو إسرائيل فى مصر من لدن دخول يعقوب إلى خروج موسى ٣٥٠ سنة ، على حين يقول العهد القديم إن مجموعها ٤٣٠ سنة (١١) ، بفارق ٨٠ سنة بين الحسابين . وحتى لو أضفنا السنوات التى قضاها يوسف بمصر قبل مجىء قومه ، وهى ٢٢ سنة (١٢) لظل هناك فرقُ ٥٨ سنة . وهذا بطبيعة الحال لو تصادف أن كان دخول قاهات مصر فى مبدإ حياته ، ووُلد كل من موسى وعمران كما افترض ابن حزم

بعد موت أبيه . وهى مسامحة شديدة من ابن حزم ، إذ يصعب جدا جدا أن يتحقق ذلك (بل هو لم يتحقق فعلا) فى الواقع ، وإلا فالفرق بين الحسابين أكبر من ذلك كثيرا . والقوم هم هم الذين ذكروا الحسابين ، لا أحد آخر . ويقول ابن حزم تعقيبا على هذا التناقض : « ولو لم يكن فى توراتهم إلا هذه الكذبة وحدها لكفت فى أنها موضوعة مبدلة من حمار فى جهله أو مستخفّ سخر بهم ولابدّ » (١٣) .

وقد وجدت تناقضًا فى تعداد بنى يعقوب الذين أتوا معه إلى مصر ، إذ قيل إنهم ٦٦ نفسًا ، وفى السطر التالى لذلك مباشرة أنهم ٧٠ (١٤) . وهذا تناقض فاحش ، ويزيده فحشًا أنه فى سطرين متتاليين . والحقيقة أن العدد الصحيح ، كما لاحظ ابن حزم ، لا هو هذا ولا ذاك . إنما هو ٦٧ (١٥) . ويمكن القارىء التحقق من ذلك بنفسه لو قرأ الآيات ٨ - ٢٦ من الأصحاح السادس والأربعين من سفر « التكوين » .

كذلك يرتبك قارىء العهد القديم حينما يجد أن الأرض التى سكنها يعقوب وأولاده فى مصر هى أرض جاسان مرة (١٦) ، وأرض رعمسيس مرة أخرى (١٧) .

وفى الأصحاح التاسع والأربعين من سفر « التكوين » تناقض آخر ، إذ جاء فى الآية ٢٨ أن يعقوب حين دعا بنيه إليه قبيل موته باركهم واحدًا واحدًا ، بينما كان كلامه لشمعون ولاوى فى نفس الأصحاح (آيات ٥ - ٧) على هذا النحو : « شمعون ولاوى أخوان . آلات ظلم سيوفهما . فى مجلسهما لا تدخل نفسى . بمجمعهما لا تتحد كرامتى . لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانًا وفى رضاهما عرقبا ثورا . ملعون غضبهما فإنه شديد ، وسخطهما فإنه قاس . أقسمهما فى يعقوب وأفرقهما فى إسرائيل » . وهذا لعن لا مباركة . وقبيل ذلك وجه الحديث إلى رأوبين ، الذى زنى بإحدى سرارى أبيه (١٨) ، قائلاً : « ... فائرًا كالماء لا تتفضل . لأنك صعدت على مضجع أبيك . حينئذ دنسته . على فراشى صعد » . ولا أظن هذا من المباركة فى شىء . أما قوله عن رأوبين نفسه فى أول حديثه إليه : « رأوبين ، أنت بكرى وقوتى وأول قدرتى . فضل الرفعة وفضل العزّ » فهو كلام لا يمكن أن يخرج من فم نبى كريم إن صح ما يقوله العهد القديم عن اعتداء ابنه على عرضه ذلك الاعتداء الشنيع . إنما هو بكلام الديوثين أشبه ، وإلا فكيف يفتخر يعقوب هذا الافتخار بذلك الابن الفاجر المعتدى على عرضه ؟

وإذا قرأنا قصة ولادة موسى وما فعلته أمّه بعد أن لم تستطع الاستمرار فى إخفائه عن عيون رجال فرعون الموكلين بقتل الرضّع من بنى إسرائيل نجد أن كاتب القصة يقول إن أم موسى أخذت سفطا من البردى وطلته بالحُمر والزفت وأرقدت الطفل فيه ، ثم وضعته بين الحلفاء على حافة النهر ، حيث التقطته ابنة فرعون (١٩) . وواضح أن التابوت لم يُلْق فى الماء . وإننا لنتساءل : فلم إذن طلته الأم بالحُمر والزفت ، وهما المادتان اللتان تُطْلى بهما القوارب وما أشبه لمنع دخول الماء فيها حتى لا تغرق ؟ إن هذا ، لو صح أن السَفط لم يُلْق فى الماء ، لهو تصرف يفتقر إلى المنطق والحكمة . فإذا مضينا فى القراءة فُوجئنا بأن ابنة فرعون تسميه « موسى » وتقول : « إنى انتشلته من الماء » (٢٠) . وهكذا يتبين لنا ، مما يقوله كاتب السفر نفسه ، أن السَفط كان قد أُلقى فى النهر لا على الحلفاء النابتة على شطه . ومعنى هذا أن القصة تتناقض مع نفسها . أما القرآن فقد قال قولاً واحدا إن الله سبحانه قد ألهم أم الرضيع أن تلقى به فى تابوت وتقذف بالتابوت فى اليم (٢١) .

ومثل هذا التناقض نجده فى اسم حمى موسى : فهو مرة رعونيل (٢٢) ، ومرة يثرون (٢٣) ، وذلك فى عدة أسطر قلائل لا

غير ، ومرة ثالثة حوباب بن راعوئيل (٢٤) ، وهذه الثالثة أطم وأدهى ، لأنه بهذه الطريقة قد أصبح ابن نفسه .

ونفس الشيء نجده في الاسم الذي سمى به رب العزة نفسه لموسى كي يخبر به بني إسرائيل ، وذلك حين سأله موسى قائلاً : « فإذا قالوا لي : ما اسمه ، فماذا أقول لهم . فقال الله لموسى : أهيه الذي أهيه . وقال : هكذا تقول لبني إسرائيل : أهيه أرسلني إليكم » . وفي الآية التالية مباشرة يكرر الله كلامه لموسى قائلاً : « هكذا تقول لبني إسرائيل : يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم . وهذا اسمي إلى الأبد » (٢٥) . فهل هو أهيه أم يهوه ؟ أليس ذلك مربكا ؟ ثم أهذا هو الكتاب الذي يجعله القوم أساسا يقيسون به صحة ما جاء في القرآن أو خطأه ، وبخاصة في مسألة الأسماء ؟

وعند إخبار الله تعالى عبده موسى أنه قد اختاره نبيا يجعله كاتب سفر « الخروج » يعترض على هذا الاختيار الإلهي ويكلم ربه على نحو غير لائق البتة ، إذ يقول : « اسمع أيها السيد . لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا من حين كلمت عبدك . بل أنا ثقيل الفهم واللسان » . وحين يطمئنه ربه إلى أنه سيبعث معه هارون ليكلم فرعون

بالنيابة عنه يمضى موسى فى الاعتراض الخشن قائلاً : « استمع أيها السيد . أرْسل بيد من ترسل » . ويفترى كاتب القصة على الله قائلاً : « فحمى غضب الرب على موسى » (٢٦) . إن القصة بهذه الطريقة تصور موسى فى خطابه لربه وكأنه بدوى جلف يكلم بدويا جلفا مثله . ثم كيف يحْمى غضب الله على من اختاره بنفسه نبيا لحمل رسالته ؟ وليس شىء من ذلك فى القرآن الكريم ، فصورة موسى ، مثل سائر الأنبياء ، هى الصورة التى تليق برسول اللّه أدبًا مع ربه وإخباتًا له ومعرفة بقدره وجلاله .

وعلى خلاف القرآن الكريم ، الذى يجعل من هارون نبيا مع موسى ووزيرًا وعضدا له (٢٧) ، يجعله كاتب سفر « الخروج » نبيا لموسى ، ويجعل موسى إلهًا له (٢٨) ، وكذلك إلها لفرعون (٢٩) . فما هذا الاضطراب ؟ وما هذا السخف ؟ بل ما هذا الكفر ؟

وفى سفر « الخروج » أيضا يأمر الله سبحانه موسى أن يدخل هو وشيوخ بنى إسرائيل إلى فرعون ويطلبوا منه أن يطلق سراح قومهم (٣٠) . ولكن بعد صفحتين اثنتين فحسب ينسى مؤلف السفر ذلك ويقول بدلاً منه إن الذى دخل على فرعون وطلب منه هذا هو موسى وهارون ، لا موسى وشيوخ بنى إسرائيل (٣١) .

ويشبه هذا أن اللّه ، عند لقائه بموسى ، يأمره أن يصنع آيتى العصا واليد بنفسه ، وعند التنفيذ نجد أن هارون هو الذى يفعل هذا لا موسى (٣٢) ، وبناءً على أمر الله أيضا (٣٣) .

كذلك نجد نفس الاضطراب عند الكلام عن معجزة تحويل الماء إلى دم ، إذ يهدد موسى فرعون أنه سيضرب بالعصا التى فى يده على الماء الذى فى النهر فيتحول دمًا ويموت السمك الذى فيه وينتن النهر ، ثم يأمر الله عقيب ذلك موسى أن يجعل هارون هو الذى يصنع هذا (٣٤) .

وكان الله قد طلب من موسى أن يأخذ من ماء النهر ويسكب على اليابسة فيصير الماء الذى يأخذه من النهر دمًا على اليابسة (٣٥) . ولكن عند التنفيذ نجد أن هارون أيضا هو الذى يقوم بذلك ، لكن ليس على هذا النحو ، إذ ضرب هارون الماء الذى فى النهر فتحول كله دما ... إلخ . وهذا أيضا تناقض .

وجاء فى الأصحاح السابع من هذا السفر أيضا أن هارون أكبر من موسى بثلاثة أعوام (٣٦) ، رغم أن الأصحاح الثانى يقول عن ولادة موسى : « وذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى ، فحبلت المرأة وولدت ابنا. ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر . ولما لم

يمكنها أن تخبئه بعدُ أخذت سفطا من البردى وطلته بالحُمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر . ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفْعل به » (٣٧) ، وهو ما يُفْهم منه أن موسى هو بكر أبويه ، أى أنه كان أكبر من هارون . وحتى لا يقول أحد : « لعل هارون لم يكن شقيق موسى » أبادر فأذكر أن أباهما واحد (وهو عمرام) ، وأمهما واحدة (واسمها ، كما جاء فى العهد القديم ، يوكابد) (٣٨) .

وفى التسبيحة التى ترنم بها موسى وشعبه بعد غَرق فرعون وجنوده فى اليمّ نسمعهم يصفون غرق أعدائهم قائلين : « هبطوا فى الأعماق كحجر » ، و « غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة » (٣٩) ، وهو ما تكرر أيضا على لسان اللاويين فى سفر « نحمْيا » ، إذ قالوا فى مناجاتهم لربهم : « ورأيت ذل آبائنا فى مصر وسمعت صراخهم ... وفلقت اليم أمامهم وعبروا فى وسط البحر على اليابسة وطرحْت مطارديهم فى الأعماق كحجر فى مياه قوية » (٤٠) ، وذلك رغم أن فرعون وجنوده لم يقتحموا الماء حتى يقال إنهم غاصوا فيه كحجر ، بل الماء هو الذى غطّاهم كما جاء فى العهد القديم نفسه (٤١) . أما القرآن الكريم فلا يقول إلا أنه قد « غشيهم من اليم ما

غشيهم)) (٤٢) ، وهو ما يتسق مع الطريقة التى غرق بها أعداء بنى إسرائيل كما وصفها كل من الكتابين .

ويقول سفر ((الخروج)) (٣٣ / ٢٠) : ((قال (الرب لموسى) : لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الإنسان لا يرانى ويعيش)) (وإن قيل عقب ذلك إن من الممكن أن ينظر موسى وراء الله بعد أن يجتاز ، وكأن لله خلْفًا وقُدّاما ، وظهرًا ووجها بالمعنى الحرفى للظهر والوجه !) (٤٣) . ونسى كاتب السفر أنه قال فى موضع آخر إن الله كان يكلم موسى ((وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه)) (٤٤) . وهو ما أكده سفر ((العدد)) ، إذ جاء فيه (١٢ / ٧ - ٨) : ((وأما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين فى كل بيتى . فمًا إلى فم وعيانًا أتكلم معه لا بالألغاز)) ، وقاله موسى نفسه حسبما جاء فى سفر ((التثنية)) (٥ / ٤) : ((وجْهًا لوجه تكلم الرب معنا فى الجبل من وسط النار)) . ليس ذلك فحسب ، بل رأى الله مع موسى هارونُ ونادابُ وأبيهو وسبعون من شيوخ بنى إسرائيل : ((رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ... فرأوا الله وأكلوا وشربوا)) (٤٥) . أما القرآن الكريم فانه يؤكد أنه لا موسى ولا بنو إسرائيل قد رأوا اللّه ، فقد

أصابته كما أصابتهم الصاعقة (٤٦) . وهذا هو اللائق بجلال الألوهية وعظمتها اللانهائية .

ومن شنائع الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى قوله إن هارون عليه السلام هو الذى صنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل أثناء غياب موسى أربعين ليلة حين ذهب لميقات ربه ، وإنه بنى مذبحًا لعبادة ذلك العجل أخذ الإسرائيليون يرقصون فيه عرايا وقد بانت سوءاتهم وتعرّت أستاههم . وزاد كاتب القصة فنسب إلى هارون الكذب ، إذ ادّعى لموسى أنه لم يفعل أكثر من أن طرح الذهب الذى جمعه من بنى إسرائيل فى النار فخرج العجل ، مع أن القصة تقول إنه هو الذى صنعه ونحته بالإزميل نحتا (٤٧) . ولكن القرآن يقرر أن الذى صنع العجل إنما هو السامرىّ ، وأن هارون قد رفض ذلك رفضا قاطعًا ووقف فى وجه قومه ولكنهم لم يستمعوا له وكادوا أن يقتلوه (٤٨) . وهذا الذى يقوله القرآن هو ما يقبله العقل ويهشّ له الضمير ، إذ لا يمكن أن يُقْدِم نبى على صنع صنم وعبادته ، وإلا كانت النبوة عبثا فى عبث . إن هارون بذلك الذى نسبه إليه مؤلف سفر « الخروج » بهتانا وكذبا يكون أول من خالف الوصايا التى تلقاها موسى على الجبل ليبلغها قومه : « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك

تمثالا منحوتا ولا صورة مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن . لأنى أنا الرب إلهك غيور » (٤٩) ، « لا تصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب » (٥٠) .

على أن اضطراب القصة لا يقف عند هذا الحد ، فهى تقول إن موسى عليه السلام قد أمر بنى لاوى (الذين هو واحد منهم) أن يقتلوا جميع ذويهم وأصدقائهم وأهل بلدهم ممن اقترفوا خطيئة عبادة العجل ، وإن محصلة القتل فى ذلك اليوم كانت ثلاثة آلاف رجل (٥١) . ويتساءل أبو الأعلى المودودى بحق : « لم لمْ يُقْتَل هارونُ إذا كان هو صاحب عبادة العجل ؟ لم لمّ يطلب بنو لاوى من موسى أن يقتل أخاه هارون ، الذى كان هو الآثم الحقيقى ، بالضبط كما طلب منهم أن يقتلوا إخوتهم ؟ » . إن الكتاب المقدس ، كما لاحظ المودودى أيضا ، يذكر أن موسى بعد هذه الواقعة رجع إلى ربه داعيا إياه أن يغفر لقومه خطاياهم أو يمحوه من كتابه ، فأجابه الله قائلاً : « إن من أخطأ إلىّ أمحوه من كتابى » ، ومع ذلك لم يُمْحَ اسم هارون ، بل على العكس خلع الله عليه هو وأولاده وسائر ذريته مسؤولية الكهانة والقيام على المذبح (٥٢) . ويخلص المودودى من ذلك

إلى أن الكتاب المقدس يناقض نفسه بنفسه ، وأن الحقيقة هى ما قاله القرآن الكريم من أن هارون برىء تمامًا من صنع العجل ومن عبادته (٥٣) .

ويبدو غريبًا أشد الغرابة أن يقول الله عن نفسه حسبما جاء فى أكثر من موضع بالعهد القديم : « أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضىّ » (٥٤) . والأغرب من ذلك أن يُذّكر إلى جانب هذا قولُه سبحانه عن نفسه أيضا : « غافر الإثم والمعصية والخطيّة » (٥٥) . إن هذا لا يتسق مع ذاك أبدًا . ونحن المسلمين نؤمن أنه سبحانه غفور رحيم ، وأنه إن عاقب فسيعاقب المخطىء فقط ولا يحمّل وزره وازرة أخرى ولو كانت ذات قربى . فهكذا قال القرآن الكريم ، وهو الذى يوافق العقل والكرم الإلهى .

وفى سفر « العدد » نقرأ أن هارون ومريم قد تكلما على أخيهما موسى « بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها فقالا هل كلّم الرب موسى وحده . ألم يكلمنا نحن أيضا » ، وأن الله قد غضب عليهما . ثم نفاجأ عقيب ذلك أن مريم قد عوقبت وحدها ، وكان عقابها إصابتها بالبرص (٥٦) . أليس غريبًا أن يجترح اثنان نفس السيئة فيعاقب واحد فقط ؟ وأغرب من ذلك أن الله لا يعاقب هارون على

صنع العجل ، وهو كفر بواح ، ويعاقب مريم على ما لا يمكن أبدًا قياسه بذاك ، إذ هو إن صحّ لا يعدو غيرةً بين الإخوة . وأين الكفر من الغيرة التى تكون بين بعض الإخوة والأخوات ؟

وينسب كاتب سفر « الخروج » النّدم إلى الله سبحانه . ويجعل ندمه بناءً على أمر موسى له : « لماذا يا رب يحْمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ... ارجع عن حموّ غضبك واندم على الشر بشعبك ... فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » (٥٧) . وكان الله قد غضب على بنى إسرائيل لعبادتهم العجل . ومع هذا ففى سفر « العدد » يقول بلعام عنه عز وجل : « اصْغ إلىَ يا ابن صفور . ليس الله إنسانا فيكذب . ولا ابن إنسانٍ فيندم » (٥٨) . وهذا ، وإن كان هو الذى يليق بعظمته سبحانه ، يتناقض أيما تناقض مع النص السابق .

وبعد ، فهذه فقط بعض الأخطاء والسخافات والتناقضات والإحالات التى وقع فيها الكتاب المقدس فى القصتين اللتين يريد المؤمنون به أن يحاكموا إليهما القرآن الكريم . وما من مرة وضعنا ما جاء فى القرآن الكريم بإزاء ما قاله ذلك الكتاب إلاّ وشالت كفته ورجحت كفة القرآن .

إذن ، فلا معنى للاحتجاج بأن اسم هامان قد ورد فى العهد القديم بصفته وزيرًا لأحشويرش الفارسى ، لا وزيرًا لفرعون كما جاء فى القرآن الكريم . ومع هذا فسوف نغض الطرف عن كل ما مر كأنه لم يكن ، وسنفترض أن هامان كان فعلاً وزيرًا للإمبراطور الفارسى ، فهل يمنع هذا أنه كان هناك هامان آخر قبل ذلك فى مصر ؟ أم ترى هذا أمرًا مستحيلا ؟ ولكن ما وجه الاستحالة فى ذلك ؟ لقد ورد هذا الاسم فى أوراق البردى المصرية (٥٩) . كما كانت العلاقات بين مصر وفارس قائمة على قدم وساق فى الزمن القديم مثلها فى العصر الحديث ، فأى غرابة فى أن يوجد اسم « هامان » هنا وهناك ؟ هذا إن كان الاسم واحدًا ولم يكن لكل منهما اشتقاق مختلف ، مثل « بوسى » ، الذى كانت تسمى به أم البشر فى أساطير الصين القديمة ، و « بوسى » ، الذى تتسمى به كثير من الفتيات المصريات الآن .

ويعتقد محمد عزة دروزة أن اسم « هامان » الفارسى هو تحوير لاسم « آمون » الذى كان يتسمى به أو يُنْسب إليه ملوك مصر ووزراؤها ، مشيرا إلى أن مصر فى ذلك الوقت كانت خاضعة لسيطرة الفرس (٦٠) . ولرءوف أبو سعدة رأى جدّ قريب من هذا ، إذ يقول إن

النطق الصحيح لاسم « آمون » هو « آمان » ، وإن « هامان » (الذى يرجّح أن يكون لقبا لكبير الكهنة فى مصر على عهد فرعون موسى لا اسمًا لأحد الوزراء) هو لفظ مركب من اسم هذا الإله مسبوقًا بكلمة « ها » ، التى تعنى « المدخل » ، فيكون معنى اللقب هو « النافذ إلى آمون » (٦١) ، أى المتّصل به والوسيط بينه وبين من يعبدونه . وقد كان هامان اسمًا كذلك لأحد الآلهة العيلامية كما مرّ بيانه . وبالمناسبة فـ « آمون » هذا هو أيضا اسم ملك أورشليم ، ابن الملك منسّى ، ووالد الملك يوشيا ، الذى يقال إن حلقيا الكاهن قد وجد نسخة من شريعة موسى فى عهده (٦٢) . فما قول المنكرين فى هذا ؟ أتراهم ينكرون ذلك الملك اليهودى أيضا لهذا السبب ؟ ومن شعراء العرب المعاصرين من تسمى باسم « أدونيس » ، وهو اسم أحد الآلهة السورية القديمة ؟

ومن المصريين فى عصرنا من اسمه « حيرم » على اسم أحد ملوك صور القديمة . وكان فى حاشية الملك عبد العزيز آل سعود من اسمه « (رشاد) فرعون » . وقد كان اسم « الناصرى » لقبا للسيد المسيح عليه السلام ، حتى حكم جمال عبد الناصر مصر فأصبح كل واحد من أتباع خطه السياسى يسمى بـ « الناصرى » . كما أن لقب

« المسيح » قد أطلقه إشعيا من قبل على قورش ملك الفرس ، وكذلك لقّب به حزقيالْ ملك صور . وهناك كاتب مسرحى مصرى شهير اسمه « لينين » تمجيدًا ، فيما نظن ، لقائد الثورة الروسية . وأذكر أن أحد الفلاحين المصريين قد وُلد له طفل أيام العلاقات الوثيقة التى كانت بين عبد الناصر وخروشوف فسمّاه باسم هذا الأخير . ولا ننس أن زوجة جورباتشوف اسمها « ريسة » (تحريفًا لكلمة « رئيسة » العربية فيما قرأنا) . وأين امرأة روسية من مثل ذلك الاسم العربى ؟ وما لنا نمضى بعيدًا وقد كان من النصارى فى عصر الجاحظ من يتسمون بأسماء المسلمين بل بأسماء آل البيت كالحسن والحسين والعباس والفضل وعلىّ ويكتنون بها ، حتى إن الجاحظ قد سخر من ذلك قائلاً إنه « لم يبق إلا أن يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبى القاسم » ؟ (٦٣) وقد أشار المقريزى أيضا إلى ظاهرة اشتراكهم مع المسلمين فى الأسماء والكُنى (٦٤) . أما الآن فإنهم يكرهون أن يتسموا بذلك كراهية العمى .

وما أكثر الأسماء التى يُطْلَق كل منها على أكثر من بلد ، مثل « Cairo » (اسم « القاهرة » بالإنجليزية) الذى تُسمَى به عدة مدن فى مختلف أنحاء العالم ، و « باريس » ، الذى يطلق على العاصمة

الفرنسية وعلى قرية مغمورة فى إحدى الواحات المصرية على ما ذكر د. أحمد أمين فى كتابه « حياتى » ، و « مراغة » ، وهو اسم بلدة بكل من صعيد مصر وبلاد فارس ، و « طرابلس » ، الذى يُطْلق على « طرابلس الشام » و « طرابلس الغرب » جميعا ، و « حلوان » فى كل من مصر والعراق . ولو رجع القارىء إلى « معجم البلدان » لياقوت الحموى مثلا فسوف يجد كثيرا من هذه الأسماء ، التى قد يطلق بعضها على ثلاثة مواضع وربما أكثر . ومن ذلك « آمد » و « أبوان » و « أبهر » و « الأثلة » و « برغوث » و « برقة » و « الجماهرية » و « السند » و « العين » و « الكرش » ... إلخ ... إلخ . وقد كان اسم « بابل » يطلق أيضا على روما وإمبراطوريتها قبل الإمبراطور قسطنطين أيام أن كانت تدين بالوثنية (٦٥) . وقد أشار إليها بذلك الاسم القديس بطرس فى نهاية رسالته الأولى . كما تكرر ذكر يوحنا اللاهوتى لاسم « بابل » فى رؤياه غير مقصود به بابل المعروفة (٦٦) . ولعلها أورشليم . وبابل ، حسبما يدعى مؤلف سفر « التكوين » ، هى المدينة التى أراد البشر بعد الطوفان بناءها ، لكن الرب حقد عليهم وعلى تجمعهم فى مكان واحد وتكلمهم لغة واحدة فبددهم فى أرجاء المعمورة وبلبل ألسنتهم (٦٧) . فما القول فى

هذا ؟ وفى كل من مصر والهند نجد كلية باسم « دار العلوم » . كما أن فى كل من بريطانيا وأمريكا جامعة باسم كمبردج .

وما القول أيضا فى أن بعض المصريات يتسمين بأسماء دول ، مثل فرنسا وأندلس وسورية ، وأن « فارس » من أسماء أعلام الذكور المشهورة بين العرب ، وهو فى نفس الوقت اسم « إيران » قديما ؟ وهناك نساء عربيات يفقن الحصر اسمهن « هند » على اسم شبه القارة الهندية . وكذلك توجد منتجة سينمائية مصرية اسمها « آسيا » ، وهو اسم القارة المعروفة .

ويتحدى أبو الأعلى المودودى الذين يخطّئون القرآن لذكره هامان مع فرعون أن يقدموا قائمة بأسماء وزراء فرعون تخلو من اسم « هامان » ، وإلاّ فليس يحق لهم أن يعترضوا عليه (٦٨) .

وقد رأينا أن الحاخامات اليهود يجعلون وزير فرعون هذا واحدًا من ثلاثة : قورح أو يثرون أو بلعام (٦٩) . فأما « قورح » فقد جاء ذكره فى سفر « العدد » فى العهد القديم على أنه واحد من تلك المجموعة من بنى إسرائيل التى نشزت على موسى وتحدته فخسف الله بهم وبدورهم وممتلكاتهم الأرض (٧٠) . وهو الذى جاء ذكره فى القرآن فى سورة « القصص » باسم « قارون » (٧١) . فأين قورح هذا من

الوزارة لفرعون ؟ وأما « يثرون » فقد رأينا أنه اسم حمى موسى ، وكان كاهنًا فى مديان . ويبقى « بلعام » ، وهو اسم الرجل الذى توسّل إليه ملك مؤاب ، على ما يقول كاتب سفر «العدد » ، لكى يلعن له بنى إسرائيل حين أشرف بهم موسى على بلاده بعد الخروج من مصر بسنوات ، فلم يرض أن يلعنهم بل باركهم (٧٢) . فما علاقة رجل مثل هذا بفرعون والوزارة ؟ كما رأينا أن التلمود والمدراس يجعلان بلعام وأيوب ويثرون أعضاء فى مجلس شورى فرعون (٧٣) . فأما بلعام ويثرون فقد عرفنا أنهما لم يكن لهما علاقة بفرعون ولا بمصر حسب كلام العهد القديم نفسه . وأشد من ذلك إغراقًا فى الخطإ القول بأن أيوب ، الذى ذكره العهد القديم نفسه بعد ذلك بأزمان طوال ، كان عضوًا فى مجلس الشورى الفرعونى . أى أن علماء اليهود وأمثالهم ممن يقيمهم أولئك المعترضون الذين ذكرهم الجاحظ حجة على القرآن قد وقعوا فى مثل ما اتهم به هؤلاء القوم الكتاب المجيد بل فى أشد منه . فلماذا التنطع إذن والرعونة ؟

وقد رأينا كيف أن المدراس يقرن بين هامان وقارون (٧٤) ، مما يوحى بأنهما كانا متعاصرين . وهذا يقترب بنا مما جاء فى القرآن أشد الاقتراب .

وأخيرًا نقول لهؤلاء المعترضين إن العهد القديم ، **الذين** تحاكمون القرآن إليه ، قد تنبأ ، فيما تزعمون ، بأن العذراء ستلد لله ابنًا (هو المسيح كما قيل) وتدعوه « عمّانوئيل » (٧٥) . فهل سُمّى المسيح يومًا من قبل أى إنسان بهذا الاسم ؟ إنه لم يحدث قط أن دعته أمه أو غير أمه إلا بـ « يسوع » (« عيسى » فى العربية) . بل إن كاتب « إنجيل متى » يكذّب ما جاء فى « إشعياء » عن تسميته عليه السلام بـ « عمّانوئيل » ، إذ يقول ما نصّه عن مريم وحملها بعيسى : « فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع » (٧٦) . بل إن جبريل عليه السلام نفسه ، حسبما جاء فى لوقا (١ / ٣١) ، يبشرها بولادة عيسى قائلاً : « وهأنت ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمينه يسوع » . والطريف أن متّى يعود فيقول عقيب ما نقلناه عنه آنفا : « هذا كله لكى يتم ما قيل من الربّ بالنبى القائل هو ذا العذراء تحمل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمّانوئيل الذى تفسيره الله معنا » ، غير واجدٍ أى تناقض بين ما قاله أوّلا وما قاله لاحقا ، مما يدل على أن الذين وضعوا هذه الكتب لم يكونوا يتمتعون بالحسّ النقدى . ونعود فنؤكد أنه مع ذلك لم يحدث فى هذا الإنجيل ولا فى أى من الأناجيل الأخرى التى يقدسها

النصارى أن نادت مريم أو أحد غيرها عيسى عليه السلام فى أى وقت بـ « عمّانوئيل » . فهل مازال المعترضون يصرّون على تخطئتهم للقرآن الكريم ؟

فهذا عن اسم « هامان » . أما استبعاد المعترضين أن يكون فرعون قد فكر فى بناء صرح للاطلاع إلى إله موسى كما جاء فى القرآن (٧٧) وقولهم إنه إن كان جاحدًا بوجود اللّه فما معنى بناء صرح مادام الله غير موجود فى اعتقاده ؟ فالرد أنه لجهله كان يظن أن بُعد السماء عن الأرض لا يزيد عن ارتفاع صرح من الصروح ، وأنه باستطاعته البرهنة على عدم وجود اللّه بصعوده فى ذلك الصرح والتحقق بنفسه من ذلك . وقد سمعنا فى عصرنا هذا ، وهو عصر التقدم العلمى الجبار ، ما قاله جاجارين أول رائد فضاء روسى عند رجوعه من رحلته فى سفينة الفضاء من أنه لم يجد اللّه فى السماء . يريد أن يقول إن الإلحاد ، الذى كان عقيدة بلاده فى ذلك الوقت ، هو الدين الصحيح . فلماذا نستغرب من فرعون ، فى تلك الأزمنة المتقدمة من التاريخ حيث لم يكن العلم قد قطع شيئا من هذه الخطوات الجبارة التى أنجزها فى عصرنا ، أن يفكر على هذا النحو ؟ ويرى عبد الله يوسف علىّ أن فرعون إنما كان يقصد السخرية بموسى والدين الذى

يدعو إليه (٧٨) .

هذا إن كان فرعون جاحدًا ، أما إن كان مؤمنا مشبّها فإن قول المعترضين إنه كان ولا شك يعلم أنّ ليس فى طاقة بنى آدم أن يبنوا بنيانا يخرق السماوات السبع والأجزاء التى بينها حتى يحاذى عرش اللّه هو قول عجيب ، إذ من أين لفرعون أن يعرف أن ثمة سبع سماوات وأن العرش فوقها ؟ إن جاجارين فى عصرنا لم يكن يعرف شيئًا من ذلك ، وإلاّ لما قال قولته التى ذكرنا قبل قليل . وليس فى العهد القديم ولا الجديد ما يدل على أن السماوات سبع . إنما ذلك فى القرآن الكريم ، وهو لم يكن قد نزل من السماء على عهد فرعون بطبيعة الحال . وإذا كان العهد القديم ، الذى يستند إليه أولئك المعترضون ، قد تكرر إظهاره لله على الأرض تحت بصر هذا الشخص أو تلك الجماعة ، فما وجه الغرابة فى أن يظن فرعون ، لو كان مؤمنا نافيا للتشبيــه ، أن باستطاعته رؤية الله إذا صعد الصرح وأشرف على السماء ؟

إن موسى نفسه عليه السلام قد سأل ربه ، حسبما جاء فى العهد القديم ، قائلاً : « أرنى مجدك » ، فأجابه الله تعالى : « لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الانسان لا يرانى ويعيش » (٧٩) . وقد

جاء فى القرآن الكريم عن موسى قوله يناجى ربه : « ربَّ ، أرنى أنْظُرْ إليك » ، فيأتيه الرد الإلهى : « لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل . فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى . فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صعقا . فلما أفاق قال : سبحانك ! تُبْتُ إليك ، وأنا أول المؤمنين » (٨٠) . ثم ألا يقول النصارى إن الله قد تجسّد فى هيئة بشرية ونزل من عليانه وأصبح يحلّ فى هذا المكان أو ذاك وتخلو منه سائر الأمكنة بل ويأكل ويشرب ويتغوط ويتبول وينام ويتعب ويخاف ويسبّ ؟ وقد طلب المشركون من النبى على سبيل التحدى أن يروا ربهم فقالوا : « لولا أُنزل علينا الملائكةُ أو نرى ربّنا » (٨١) . فهل سيكذّب أولئك المعترضون بهذا كلّه ؟ أليس هذا فى أقل القليل يشبه ما جاء فى القرآن من قول فرعون إنه يريد أن يُبْنى له صرح لعله يبلغ الأسباب فيطلع إلى إله موسى ، وإن كان اتهمه عليه السلام مع ذلك بالكذب ؟

أما قول المعترضين إن فرعون إن كان كافرًا فإنه لم يكن مجنونا حتى يقول ما قال عن الصرح والاطلاع إلى اللّه ، فإنه يدل على عدم الفهم الصحيح للطبيعة البشرية ، وبخاصة نفسية الطغاة الجبارين . إن كثيرًا من هؤلاء قد ادّعوا لأنفسهم الألوهية ، ومن لم يدّع منهم ذلك

كان يتصرف كأنه إله لا يخطىء ولا يصح أن يعترض عليه معترض . وكثيرا ما أورد هذا الصنف من الحكام بلاده وشعوبه موارد الهلاك والدمار فدخلوا فى حروب لم يستعدّوا لها فهُزموا هزائم مروّعة وأفقروا أممهم وأذلوها إذلالاً لا يخطر على بال . وعصرنا الحديث شاهد على عددٍ لابأس به من هؤلاء الجلادين . فأين كانت عقول هؤلاء حينما أتوا هذه الأفعال المجنونة ؟ وقد قرأنا كيف أن بعض الضباط الذين يتولون تعذيب المساجين المتدينين فى بلد مسلم كانوا يقولون لهم إنهم قد حبسوا الله فى الزنزانة المجاورة ! يريدون أن يُفّهموهم أن أحدًا لا يستطيع أن ينقذهم من أيديهم وليس أمامهم إلا اليأس والاستسلام المطلق . فهل من الغريب بعد ذلك أن يقول فرعون ما قال وهو الذى كان يزعم أنه إله ؟

الهوامش

١- انظر « رسائل الجاحظ » / ٣ / ٣٠٤ - ٣٠٥ .

2 - E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam , Vol. III , p. 245 .

3 - Encyclopaedia of Islam , New Edition , Vol. III , p. 110.

4 - Thomas Patrick Hughes , Dictionary of Islam , p. 160 .

٥- انظر د . عبدالجليل شلبى / رد مفتريات على الإسلام / ١٥٨ .

٦- د . أحمد شلبى / اليهودية / ٢٤٤ .

٧- عبدالجليل شلبى / رد مفتريات على الإسلام / ١٥٩ .

٨- السابق / ١٥٩ - ١٦٠

٩- ول ديورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ٢٨ . وقد غيرتُ كلمة « موردكى » (التى وردت فى النص هنا ، إلى « موردخاى » (الموجودة فى ترجمة العهد القديم) .

١٠- تكوين/ ٤٦ / ٨ - ١١ ، و ٤٩ / ١ وما بعدها ، وخروج / ١ / ١ - ٦ ، و ٦ / ١٤ - ٢٠ ، و ٧ / ٧ .

١١- خروج / ١٢ / ٤٠ - ٤٢ .

١٢- باع يوسف إخوته وهو ابن ١٧ سنة لرجل من مديان باعه بدوره لأحد المصريين (تكوين / ٣٧ / ٢) ، وجعله فرعون على خزائن الأرض وعمره ٣٠ سنة (تكوين / ٤١ / ٤٠) . ويضاف إلى ذلك سبع سنوات الخصب ، وسنتان من سبع سنوات الجدب (تكوين / ٤١ / ٤٧ ، و ٤٥ / ٤ - ١١) .

١٣- ابن حزم / الفصل فى الملل والأهواء والنحل / ١ / ٢٥٢ - ٢٥٣ .

١٤- تكوين / ٤٦ / ٢٦ - ٢٧ . كما كرر فى موضع آخر (خروج / ١ / ١ - ٥) أنهم سبعون .

١٥- انظر ابن حزم / الفصل / ١ / ٢٤٢ .

١٦- تكوين / ٤٦ / ٣٤ ، و ٤٧ / ٦ ، وخروج ٨ / ٢٢ . ويذكر ابن حزم ، بناء على الترجمة التى كان ينقل منها ، أنها قوص (الفصل / ١ / ٢٥١ ، ٢٥٢) .

١٧- تكوين / ٤٧ / ١١ ، وخروج / ١٢ / ٣٧ .

١٨- تكوين / ٣٥ / ٢٢ .

١٩- خروج / ٢ / ٢ - ٤ .

٢٠- خروج / ٢ / ١٠ .

٢١- طه / ٣٨ - ٣٩ ، والقصص / ٧ .

٢٢- خروج / ٢ / ١٨ .

٢٣- خروج / ٣ / ١ . وانظر كذلك نفس السفر / ٤ / ١٨ ، و ١٨ / ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ .

٢٤- عدد / ١٠ / ٢٩ ، وقضاة / ٤ / ١١ .

٢٥- خروج / ٣ / ١٣ - ١٥ .

٢٦- خروج / ٤ / ١٠ - ١٤ .

٢٧- الأنعام / ٨٤ - ٨٩ ، ومريم / ٥٣ ، وطه / ٢٩ - ٣٢ ، والقصص / ٣٤ .

٢٨- خروج / ٤ / ١٦ .

٢٩- خروج / ٧ / ١ .

٣٠- خروج / ٣ / ١٨ .

٣١- خروج / ٥ / ١ . وانظر كذلك نفس السفر / ٦ / ٢٦ - ٢٧ .

٣٢- خروج / ٤ / ٣٠ .

٣٣- خروج / ٧ / ٩ .

٣٤- خروج / ٧ / ١٤ - ١٩ .

٣٥- خروج / ٤ / ٩ .

٣٦- خروج / ٧ .

٣٧- خروج / ١ - ٤ .

٣٨- خروج / ٦ / ٢٠ ، وعدد / ٢٦ / ٥٩ .

٣٩- خروج / ١٥ / ٥ ، ١٠ .

٤٠- نحمنبا / ٩ / ٩ - ١٠ .

٤١- خروج / ١٥ / ٥ ، ١٠ .

٤٢- طه / ٧٨ .

٤٣- يسخر ول ديورانت من ذلك قائلا إن إله اليهود « حييّ ، لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره » (قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ٢ / ٣٤٠) .

٤٤- خروج / ٣٣ / ١١ .

٤٥- خروج / ٢٤ / ٩ - ١١ .

٤٦- البقرة / ٥٥ ، والأعراف / ١٤٣ .

٤٧- خروج / ٣٢ / ١ - ٦ ، ١٧ - ٢٠ ، ٢٤ .

٤٨- طه / ٨٣ - ٩٧ ، والأعراف / ١٤٨ - ١٥٢ .

٤٩- خروج / ٢٠ / ٣ - ٥ ، وتثنية / ٥ / ٧ - ٩ .

٥٠- خروج / ٢٠ - ٢٢ .

٥١- خروج / ٣٢ / ٢٧ - ٢٩ .

٥٢- خروج / ٣٢ / ٣١ - ٣٢ ، وعدد / ١٨ / ١ - ٧ .

53- S. A. A. Maududi , The Meaning of the Qur'an , translated by

Muhammad Akbar , Vol. VII , P. 116.

٥٤- خروج / ٢٠ / ٥ ، و ٣٤ / ٧ ، وتثنية / ٥ / ١٠ .

٥٥- خروج / ٣٤ / ٧ .

٥٦- عدد / ١٢ / ١ - ١٠ .

٥٧- خروج / ٣٢ / ١١ - ١٤ . ويعلق ول ديورانت على إسناد العهد القديم « الندم » إلى الله تعالى قائلا : « كذلك لا يرى (الله) أنه معصوم من الخطإ . ويرى أن أشنع ما وقع منه من الأخطاء هو خلق الإنسان . ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم وعلى ارتضائه أن يكون شاول ملكا » (قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ٢ / ٣٤٠) .

٥٨- عدد / ٢٣ / ١٨ - ١٩ .

٥٩- انظر د . عبدالجليل شلبى / رد مفتريات على الإسلام / ١٥٨ .

٦٠- انظر محمد عزة دروزة / تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم / ٢٨١ . ويلمح محمد حميد الله فى ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم إلى مثل هذا الرأى ، إذ يقول إن اسم « هامان » يذكرنا بـ « آمون » (Muhammad Hamidullah , Le Saint Coran , 1973 , p. 512) .

٦١- انظر رءوف أبو سعدة / من إعجاز القرآن - العلم الأعجمى فى القرآن مفسرا بالقرآن / ٢ / ٥٨ - ٦٠ .

٦٢- أخبار الأيام الثانى / الأصحاحان ٣٣ - ٣٤ .

٦٣- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣١٧

٦٤- انظر د . محمد زغلول سلاّم / الأدب فى العصر المملوكى / ١ / ١٨٦ - ١٨٧

٦٥- انظر صابر طعيمة / اليهود بين الدين والتاريخ / ٣٤٦ .

٦٦- رؤيا يوحنا اللاهوتى / ١٦ / ١٩ ، و ١٧ / ٦ ، و ١٨ / ١٠ ، ٢٢ .

٦٧- تكوين / ١١ / ١ - ٩ .

68 - Maududi , The Meaning of the Qur'an , Vol. IX , p. 74 .

69 - Thomas Patrick Hughes , Dictionary of Islam , p. 160 .

٧٠- عدد / ١٦ / ١ - ٣٥ .

٧١- القصص / ٧٦ - ٧٩ .

٧٢- عدد / الأصحاحات ٢٢ - ٢٤ .

73 - E. J. Brill's First Encyclopaedia of Islam , Vol. II , p. 295 .

74 - Ibid , p. 245 .

٧٥- إشعياء / ٧ / ١٤ ، و ٩ / ٦ - ٧ . ومن المثير للدهشة أن العذراء بعدما ولدت عيسى عليه السلام كانت تقول له إن أباه هو يوسف النجار . وبالمثل يجعله لوقا ابنا له (لوقا/ ٢ / ٤١ - ٤٨) ، وكذلك متى فى ذكر نسبه عليه السلام (متى / ١ / ١- ١٧) . وهذا كله اضطراب وخبط شنيع ! وعلاوة على ذلك فمتى ولوقا ، وهما اللذان أوردا سلسلة نسب المسيح ، مختلفان حول هذه السلسلة وعدد الأجيال التى تفصل بينه وبين جده داود : فهل هى واحد وأربعون جيلا أو ستة وعشرون جيلا فقط ؟ كذلك فهل يوسف النجار ، الذى يقول متى ولوقا إنه أبوه ، هو ابن هالى ؟ أم هل هو ابن يعقوب ؟ وعن طريق أى من أبناء داود ينتسب المسيح إلى ذلك النبى عليهما السلام ؟ أعن طريق سليمان أم عن طريق أخيه ناثان ؟ ... إلخ ... إلخ . وبالمناسبة فإن داود ، حسب رواية العهد القديم ، هو حفيد للوط ثم ليهوذا بن يعقوب عن طريق زنى الأول بابنته وزنى الثانى بزوجة ابنه ثامارا . فإذا كان المسيح حفيدا لدواد فبالله من نسب ! والجدير بالذكر أنه فى الوقت الذى يجعل هذان الكاتبان المسيح عليه السلام ، فى سلسلة النسب اللتين ذكراها ، ابنا ليوسف النجار ولا ينسبانه إلى الله على أى نحو ، نجد لوقا يجعل هذه البنوة الإلهية لآدم عليه السلام .

٧٦- متى / ١ / ٢١ .

٧٧- القصص / ٣٨ ، وغافر / ٣٧ .

78 - A. Yusuf Ali , The Holy Quran , pp. 1013 , 1273 .

٧٩- خروج / ٣٣ / ١٨ - ٢٠ .

٨٠- الأعـراف / ١٤٣ . كما ذكر القرآن الكريم أن بنى إسرائيل قالوا لنبيهم : « أرنا الله جهرة » فأخذتهم الصاعقة (البقرة / ٥٥ ، والنساء / ١٥٣) .

٨١- الفرقان / ٢١ .

٥- يحيى

كما شنّع النصارى على ما أخبر به القرآن الكريم من أن الله سبحانه قال لزكريا عند تبشيره بولادة يحيى : « يا زكريا ، إنا نبشّرك بغلامٍ اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبْلُ سميّا » (١) ، مؤكّدين أنه كان هناك قبله أكثر من واحد اسمه « يحيى » ، مثل يوحنا بن قارح (٢) . وقد جاء فى ترجمة لودفيج أولمان الألمانية للقرآن ، تعليقا على هذه الآية ، أنه كان قبل يحيى أشخاص عدة يحملون اسم « يوحنا » (٣) .

وهذا التشنيع يقوم على أن كلمة « سميّ » تعنى بالضرورة « من كان له نفس الاسم » ، إذ هم قد فهموا من الآية أن أحدًا قبل الغلام الذى وهبه الله لزكريا لم يُسمّ باسم « يحيى » . والحق أن هذا ليس إلا أحد معانى الكلمة على ما ورد فى معاجم اللغة وكتب التفسير (والمعانى الأخرى هى : « المفاخر » و « النظير » و « السامى ») . ويمكن لمن يريد التحقق مما نقول أن يرجع إلى القواميس اللغوية . وأمامه عدة منها وضعها مؤلفون نصارى يستطيع أن ينظر فيها مثل « محيط المحيط » للبستانى ، و « المنجد »

لليسوعيين ، و « الرائد » لجبران مسعود .

وقد فسّر المفسرون « سميّا » فى الآية الكريمة بما يفيد أن يحيى عليه السلام لا يساميه أو يشبهه أحد ، أو أن أحدًا قبله لم يسمَّ باسمه . فمن الممكن جدا إذن أن يكون المعنى هو أنه لم يجىء قبل يحيى أى نظير له . وقد جاء فى « متى » على لسان عيسى عليه السلام : « الحقّ أقول لكم لم يقُمْ بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » (٤) . وهو تقريبا نفس ماكتبه لوقا فى إنجيله على لسان عيسى أيضا : « لأنى أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبىٌّ أعظم من يوحنا المعمدان » (٥) . فإن أرادوا أن ينكروا على القرآن قوله عن يحيى عليه السلام : « لم نجعل له من قبل سميّا » فلينكروا ذلك أيضا على أناجيلهم . وأنى لهم ذلك ؟ على أن القرآن يخلو من تناقض إنجيل متّى ، الذى بعد أن قال إنه لم يجىء قبل يحيى عليه السلام من هو أفضل منه عاد فأضاف العبارة الآتية : « ولكن الأصغر فى ملكوت السماوات أفضل منه » ، وهو ما دفع ابن حزم إلى التعليق قائلاً : « تأملوا هذا الفصل تروا مصيبة الدهر فيهم وقُرّة عيون الأعداء وقولاً لا يمكن أن يقوله ولا ينطق به صبى يُرْجى فلاحه ولا أمة وكفاء إلا أن تكون مدخولة العقل : أثبت أنه لم

يولد فى الآدميين أشرف من يحيى . وإذا كان كما زعم أن الصغير فى ملكوت السماء أكبر من يحيى ، فكل مؤمن يدخل ملكوت السماء ضرورة فهو أفضل من يحيى . فوجب من هذا أن كل مؤمن من بنى آدم فهو أفضل من يحيى ، وأن يحيى أرذل وأصغر من كل مؤمن . فما هذا الهوس ؟ وما هذا الكذب ؟ وما هذه العبارة السمجة فى الدين ؟ وكم هذا التناقض ؟ والله ما قال المسيح قط شيئا من هذه الرعونة ، وما قالها إلا الكذاب متى ونظراؤه ، عليهم اللعنة ! فلقد كانوا فى غاية الوقاحة والاستخفاف بالدين » (٦) .

ومع هذا فقد ورد فى الإنجيل المنسوب إلى لوقا : « وأما أليصابات (زوجة زكريا) فتم زمانها لتلد فولدت ابنا. وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها . وفى اليوم التالى جاءوا ليختنوا الصبى وسموه باسم أبيه زكريا . فأجابت أمه وقالت لا بل يُسمّى يوحنا . فقالوا لها ليس أحد فى عشيرتك تسمى بهذا الاسم . ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يُسمّى . فطلب لوحا وكتب قائلا اسمه يوحنا . فتعجب الجميع » (٧) .

ويمكن أيضا أن تفسر الآية القرآنية بهذا المعنى . ولكن قد يقال إن القرآن قد أطلق القول حين أخبر أن أحدًا قبل يحيى لم يسمّ

باسمه ، على حين أن لوقا قد حصر ذلك فى عشيرة أليصابات . إلا أن من الجائز جدًا أن يكون ذلك هو قصد القرآن أيضا ، فقد جاءت هذه البشرى إثر ابتهال زكريا لربه قائلاً : « رب ، إنى وهن العظمُ منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك ربّ شقيا * وإنى خفْتُ الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب من لدنك وليّا * يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله ربّ رضيّا » (٨) . وواضح أن الكلام يدور حول عشيرة زكريا ، وهى نفسها عشيرة زوجته ، فمن الممكن أن يكون المعنى : « لم نجعل له من قبل (بين عشيرتك) سميّا » . وهذا إن صحّ أنّ أحدًا قبل يحيى خارج عشيرته قد سُمّى باسمه (٩) . لقد أشار المعترضون الذين أورد الجاحظ كلامهم إلى أنه كان يوجد قبله عليه السلام من اسمه يحيى ، ثم مثلوا بـ « يوحنا بن قارح » .

ولنا على ذلك عدة ملاحظات : أولا أن القرآن قال إنه لم يكن هناك قبله عليه السلام من اسمه « يحيى » ، أما أولئك المعترضون فقد ذكروا « يوحنا (بن قارح) » . فهل قصد القرآن « يوحنا » أو « يحيى » ؟ إذا وقفنا عند ظاهر النص على الأقل فالقرآن قد قال « يحيى » ولم يقل « يوحنا » . و « يحيى » مشتق من الحياة أو

الحياء ، أما « يوحنا » فيقولون إنه يعني في العبرية « كان يهْوه كريما » (١٠) ، وهذا غير ذاك . ثانيا : الشخص الذى ذكره المعترضون لم يكن اسمه « يوحنا (بن قارح) » بل « يوحانان ... » (١١) . قد يقال إن « يوحنا » هو اختصار لـ « يوحانان » (١٢) . لكننا ، إن تغاضينا عن الفرق بين « يحيى » و « يوحنا » وقبلنا أن القرآن قد قصد « يوحنا » ، نستطيع أن نرد بأن المقصود هو أن احدًا قبله عليه السلام لم يتسمَ بهذه الصيغة الاختصارية لا بالصيغة الكاملة . وذلك كما نقول إن أحدًا قبل هذا الطفل لم يتسم بـ « بُلْبُل » ، فلا يجوز أن يعترض معترض بأن كثيرين من قبله قد تسموا بـ « نبيل » ، لأنه وإن كانت « بلبل » هى صيغة التدليل لـ « نبيل » فإنها مع ذلك ليست إياه . ولكن قد يقال إن اسم « يوحنا » (بهذه الصيغة الاختصارية) قد ورد فى سلسلة نسب المسيح حسبما أوردها لوقا (٣ / ٢٣ - ٣٨) . إلا أننا ينبغى أن نكون على ذكر من أن المسيح ، فى هذه السلسلة وكذلك فى السلسلة التى أوردها متى (١ / ١ - ١٧) ، هو ابن يوسف النجار (١٣) . وهذا كذب صراح ، ولا يقبله لا النصارى ولا المسلمون ولا اليهود : فأما المسلمون فلأنهم يؤمنون أنه عليه السلام قد وُلد دون

أب ، وأما النصارى (أقصد جمهورهم ، وهم المثلثون) فهم يزعمون أنه ابن الله ، بينما يقول اليهود إن مريم قد حملت به سفاحًا من أحد جنود الرومان على ما هو معروف (١٤) . كذلك فإن يوحنا هذا لم يرد له ذكر فى السلسلة التى ساقها متى . وفضلاً عن ذلك فإن فى أحد الأناجيل التى ترفضها الكنيسة أن مريم لم تكن مخطوبة ليوسف النجار ولا لغيره ، وإنما كانت معتكفة فى المعبد لعبادة اللّه (١٥) ، مما يتفق مع ما جاء فى القرآن من أن أمها حين حملت بها قالت : « رب ، إنى نذرتُ لك ما فى بطنى محرّرا فتقبّلْ منى ، إنك أنت السميع العليم » ، وأن مريم بعد أن شبت كانت تلازم المحراب حيث كان زكريا كلما دخل عليها وجد لديها رزقًا من عند الله (١٦) ، ومن ثم فلا معنى للربط بين المسيح عليه السلام ويوسف النجار على أى وجه من الوجود . أى أن السلسلة المذكورة فى « متى » و « لوقا » لا تبعث أبدًا على الاطمئنان ، فكيف نثق إذن بأنه كان بين آباء يوسف النجار من اسمه يوحنا ، وبخاصة أن يوحنا هذا (كما أوضحنا قبيل قليل) لا وجود له فى سلسلة متى ؟

ثالثًا : أنه حتى لو ثبت فعلا أنه قبل يحيى عليه السلام كان هناك من اسمه يوحنا ، فيمكن القول إن المراد أن أحدًا من الأنبياء

السابقين عليه لم يتسمَّ باسمه (١٧) ، على أساس أن يحيى لم يكن شخصا عاديا ، بل كان نبيا .

ورابعًا : من الممكن جدا أن يكون المقصود أن أحدًا قبله عليه السلام ممن كان اسمه « يوحنا » (أو حتى « يوحانان ») لم يتحور اسمه إلى « يحيى » ، إنما كان يحيى عليه السلام هو أول من حدث لاسمه ذلك .

وهذا كله على أساس أن « يوحنا » الذى سُمّى به ذلك النبى الكريم هو « يوحنا » الذى يتسمّى به غيره . بيد أن أحد الباحثين العارفين بالعبرية والمطّلعين على ترجمات الكتاب المقدس بهذه اللغة وغيرها يقرّر أن يحيى عليه السلام لم يكن اسمه « يوحنا » (بالألف) بل « يوحنّى » (بالإمالة) ، وأن هذا الأخير مكون من كلمتين : « يو » (أى الله) و « حنّى » (بمعنى « أحْصر ») ، ومعناه : « الله أحْصر » ، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم حين وصف النبى يحيى بأنه كان « حصُورا » ، والمقصود بذلك أنه كان يكفّ نفسه عن شهوة النساء مع وجود القدرة . وهو من ثم يرى أن « يحيى » مشتق من الحياء (أى أنه كان يستحى من التطلع إلى النساء) . كما يؤكد أن كتبة الأناجيل عندما

أثبتوا « يوحنّا » بالألف إنما كانوا يجتهدون ، ولكنهم أخطأوا فى اجتهادهم (١٨) .

ومن هذا كله نرى أنه لا معنى لاعتراض النصارى على الآية . وتكون الآية قد صيغت بهذه الطريقة الفذة لتعنى الأمرين جميعا : أن يحيى لم يكن له من قبل نظير ، وأنه لم يتسم أحد باسمه (إمّا باطلاق ، وإما من عشيرته ، وإما من أمثاله من الأنبياء ، وإمّا أن أحدًا من السابقين عليه ممن كان اسمهم « يوحنا » لم يتحور اسمه فى العربية إلى « يحيى ») .

وينبغى ألا يفوتنا أن هذه الآية قد قُرئت ، ضمن صدر سورة « مريم » ، على النجاشى وبطارقته عندما سأل ملك الحبشة ، رحمه الله ، الصحابة الذين فروا إلى بلاده من اضطهاد قريش عما يقوله القرآن فى حق عيسى عليه السلام ، ولم تكن الآية محل دهشة أو استغراب من أيهم (١٩) ، ودعنا من ملايين النصارى الذين أسلموا بعد ذلك ولا يزالون .

الهوامش

١- مريم / ٧ .

٢- انظر « رسائل الجاحظ » / ٣ / ٣٠٥ . والملاحظ أنه لا يوجد للجاحظ رد على هذ الاعتراض في الرسالة التي بين أيدينا .

3- Ludwig Ullman , Der Koran - Das heilige Buch des Islam , S. 245 , n. 4.

٤- متى ، ١١ / ١١ .

٥- لوقا ، ٧ / ٢٨ .

٦- ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل / ٢ / ٦٩ .

٧- لوقا ١ / ٥٧ - ٦٣ .

٨- مريم ، ٤ - ٦ .

٩- يرى صلاح العجماوي أن الإشارة في إنجيل لوقا إلى أن أحدا في عشيرة اليصابات لم يسم من قبل باسم « يحيى » إنما هي منقولة من القرآن الكريم . وحجته أنها لم ترد في الأناجيل الأخرى (انظر كتابه « جوهر الإيمان في صحيح الأديان - أهل الكتاب » ، ٢ / ٣٩ ، ٤٩) . لكنه لم يبين لنا كيف حدث هذا النقل ولا متى تم . ثم إن هذه ليست التفصيلة الوحيدة التي ينفرد بإيرادها أحد الأناجيل دون غيره . كذلك فقد تكون هذه الإشارة موجودة في واحد أو أكثر من الأناجيل التي حاربتها الكنيسة ودمرتها أو أخفتها

10- Basil Cottle , The Penguin Dictionary of Surnames , art . John , and Abdullah Yusuf Ali , The Holy Quran , 768 , n. 2461.

١١- ورد ذكر هذا الرجل في الأيام الأول / ١٢ / ١٢ ، والملوك الثاني / ١٥ / ٢٣ ، وإرميا / ٤٠ / ٨ ، و ٤١ / ١١ ، و ٤٣ / ٦ . واسمه ، كما ورد عند

الجاحظ ، هو يوحنا بن فرح . وواضح أنها تصحيف .

12- The Oxford English Dictionary , art. John .

١٣- فى تعليق محققى كتاب « الفصل » على قول ابن حزم : « متى الكذاب ينسب المسيح إلى يوسف النجار » (٢ / ٣٣) نراهما يقولان : « راجع إنجيل متى / الإصحاح الأول ، وفيه . « أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا : لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حُبْلى من روح القدس ، فيوسف رجلها إذ كان بارًا ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سرًا . ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلا : يا يوسف بن داود ، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك ، لأن الذى حُبل به فيها هو من الروح القدس ... إلخ » (الفقرات من ١٨ - ٢٤) . وهذا يخالف ما قرره ابن حزم (يقصدان قوله إن متى قد نسب المسيح عليه السلام إلى يوسف النجار) ، فلعل الإنجيل قد تعرض لتغيير وتبديل آخر » (الفصل / ٢ / ٣٣ / هـ ١٠٩) . والحقيقة أنه لا خلاف بين ما قاله ابن حزم وبين ما جاء فى متى ، الذى أورد فى أول إنجيله سلسلة نسب المسيح ، وفيها أنه عليه السلام ابن يوسف (انظر سلسلة النسب المذكورة فى أول « متى ») . وقد أوردها ابن حزم وعلق عليها فى كتابه (٢ / ٢٧ - ٢٩ ، ٣٣) . أما قول متى عقيب ذلك إن مريم قد حبلت بعيسى من الروح القدس فهو تكذيب بسلسلة النسب المشار إليها ، أى أن متى يناقض نفسه ويكذب نفسه بنفسه ، وفى أسطر معدودات . ولكن هذه مسألة أخرى . وبالمناسبة ، فقد جاء اسم الروح القدس فى المرة الأولى فى النص المنقول عن متى هكذا : « روح القدس » . وهو سهو ، إذ إنه هناك « الروح القدس » . أما « روح القدس » بدون « أل » فهو اسمه عند المسلمين .

١٤- انظر ول ديورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ١١ / ٢١٤ ، وابن كثير / البداية والنهاية / ٢ / ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ .

١٥- الإنجيل المشار إليه هو إنجيل متّى غير المعتمد عند النصارى ، وهو غير إنجيل متّى المقبول عندهم والموجود فى العهد الجديد . انظر د . على عبدالرحمن وافى / الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام / ٩٤ - ٩٥ .

١٦- آل عمران / ٣٥ - ٣٦ .

١٧- وقد أشار إلى هذا المرحوم عبد الله يوسف على أيضا فى ترجمته للقرآن إلى الإنجليزية (ص ٧٦٨ / هـ ٢٤٦١) .

١٨- انظر رءوف أبو سعدة / من إعجاز القرآن - العلم الأعجمى فى القرآن مفسرا بالقرآن / ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٨ .

١٩- انظر سيرة ابن هشام / ١ / ٣٣٦ - ٣٣٧ .

٦- نبوّة النساء

وذكر الجاحظ أيضا أن مما اعترضت به النصارى على القرآن قولهم إن الله يخاطب النبى قائلاً : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١) ، بما يفيد أن الأنبياء لا يكونون نساءً ، على حين أن أهل الذكر (أى أهل الكتاب) ، الذين أمر الله العرب أن يسألوهم فى هذه المسألة ، يقولون إن الله قد بعث من النساء نبيات ، مثل مريم ابنة عمران وحنّة وسارة ورفقة (٢) .

والواقع أن معنى الكلام فى الآية هو أنه لم يحدث أن أرسل الله للناس رسولاً إلا وكان بشرا مثلهم ، فلم يحدث أن أرسل ملكًا . ذلك أن الكفار كانوا يتعنّتون ويتظاهرون بالدهشة من أن اللّه قد بعث إليهم محمدا وهو بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق (٣) ، وكانو يقولون : « هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ » (٤) ، كما طلبوا منه مرارا أن ينزّل عليه أو معه ملك (٥) . وقد كانت تلك هى تعلات كفار الأمم السابقة التى يتعللون بها ضد الأنبياء المرسلين إليهم ، كما هو واضح من الآيات القرآنية المتعددة (٦) . لم يكن اعتراض كفار قريش إذن على أنه سبحانه قد أرسل رجلاً ولم يرسل امرأة ، وإنما كان

اعتراضهم على بشرية الرسول ، فكان ردّ القرآن فى الآية التى استشهد بها المعترضون من النصارى هو أن الرسل الذين أُرسلوا قبلك يا رسول اللّه كانوا مثلك رجالاً ، أى يجرى عليهم ما يجرى على البشر ، فهم يأكلون ويموتون (٧) .

ومع ذلك فقد يجيب هؤلاء المعترضون من النصارى وأمثالهم بأن القرآن كان يستطيع أن يقول مثلاً : « وما أرسلنا قبلك إلا بشرًا نوحى إليهم » بدلاً من كلمة « رجال » ، التى تدل على أن الرسل كانوا دائمًا بشرا ذكورًا لا بشرًا فقط . لكن فات هؤلاء أن « الرجال » ليسوا بالضرورة هم الذكور من الناس فقط بل يشملون النساء أيضا . ذلك أن المرأة تسمّى « رجُلة » (مؤنث « رجُل ») . أى أنه مثلما نقول : « امرؤ » و « امرأة » نقول : « رجُل » و « رجُلة » (٨) ، فكلمة « الرجال » إذن هنا معناها « البشر » . وهذا على أساس أن اللّه قد أرسل فعلا رسلاً من النساء ، وهو ما سوف نناقشه بعد قليل .

ليس فى وصف القرآن للرسل إذن بأنهم « رجال » ما يؤخذ عليه . إنما الشناعة فى أن يوصف الله سبحانه فى العهد القديم بأنه « إنسان » (٩) ، وأن يقال عن جبريل عليه السلام : « الرجل

جبريل » (١٠) .

ثم إن « أهل الذكر » المذكورين فى القرآن هم أهل التوراة والانجيل اللذين نزلا من السماء على موسى وعيسى ، لا الكتب المسمّاة بالعهد القديم والعهد الجديد ، وهى الكتب التى أُلّفت تأليفا وتجُمع بين ما نزل من السماء مما حُفظ عن موسى وعيسى عليهما السلام وبين ما أوحت به لمؤلفيها الشياطين . وأهل الذكر هؤلاء هم الذين دخل منهم الكثيرون فى الإسلام ولا يزالون يدخلون . وقد بين القرآن فى عدة مواضع منه أن أهل الكتاب قد زوّروا كتبهم وكتبوا أشياء من عند أنفسهم وقالوا إنها من عند اللّه ، فكان ينبغى على أولئك المعترضين أن يعوا هذا وأن يعرفوا أنه سبحانه وتعالى لا يمكن أبدا أن يقصد بـ « أهل الذكر » هؤلاء الذين يؤمنون بتلك الكتب المزورة .

ومع ذلك فلننظر فى هذه الكتب لنرى ماذا تقول : فأمّا بالنسبة لسارة ، وهى أقدم النساء التى أشار إليها المعترضون ، فإن سفر « التكوين » ، وهو السفر الذى توجد فيه قصتها هى وإبراهيم وذريتهما ، لا يذكر أبدا أنها نبية أو رسولة ، ولا يشير إلى ذلك أدنى إشارة لا من قريب أو بعيد . وكذلك الحال بالنسبة لرفقة زوجة

ابنها إسحاق .

ومن يقرأ قصة إبراهيم وإسحاق وزوجتيهما حسبما جاءت فى سفر « التكوين » يستغرب أشد الاستغراب من جرأة أولئك الذين يريدون أن يجعلوه هو وأمثاله من أسفار الكتاب المقدس محكًا للقرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذه بعض الملاحظات السريعة على تلك القصة ، وهى كفيلة بأن يفقد القارىء الثقة بالسفر كله وبالكتاب المقدس أجمع :

من هذه الملاحظات أن اللّه قد ظهر لإبراهيم وابنه إسحاق عليهما السلام عدة مرات وعاشا بعدها لم يحدث لهما شىء (١١) ، مع أن العهد القديم ، كما رأينا فيما سبق ، يقول إنه ما من أحدٍ يرى الله ثم يعيش بعدها . وذلك كله بغض البصر عن أن الله سبحانه لا تمكن رؤيته فى الدنيا .

ويجترىء مؤلف السفر على الذات العلية فيقول إن الله سبحانه حينما سمع شدة صراخ سدوم وعمورة بسبب كثرة خطاياهم قال : « إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدا . أنْزِلُ وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى إلىّ . وإلاّ فأعْلَم » (١٢) ، وكأن الله عز وجل لا يستطيع أن يتأكد من وقوع أى أمر إلا بعد أن يذهب

بنفسه ويشاهد بعينه ! فما الذى يبقى من الألوهية بعد هذا ؟ وما الفرق بينه وبيننا نحن البشر ؟

ويفغر الإنسان فاه دهشة مما ينسبه كاتب السفر إلى إبراهيم عليه السلام ، وهو النبى الكريم ، إذ يقول عنه إنه لما ذهب إلى مصر أوصى امرأته أن تنكر أنها زوجته ، حتى إذا حلتْ فى عين فرعون أخذها دون أن يفكر فى قتله (١٣) . وهى فعلة لا يأتيها إلا ديُّوث ، وحاشا لأنبياء الله المصطفيْن أن يفكروا فيها بله أن يقدموا عليها . ولم يحدث هذا مرة بل مرتين ، وكانت المرة الثانية مع أبيمالك ملك جرار (١٤) . ليس هذا فحسب ، فإن ابنه إسحاق عليه السلام ، على حسب ما جاء فى هذا السفر أيضا ، قد كرّر ما صنعه أبوه من قبل ومع أبيمالك نفسه أيضًا (١٥) . فكأن الدّياثة مما ورثه عن أبيه على حسب ما كتب القوم . أستغفر الله !

ويقول كاتب السفر إن الله قد أمر إبراهيم قائلاً : « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المُريّا وأصعده هناك مُحْرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » (١٦) ، رغم أن إبراهيم كان له آنذاك ولدان : إسماعيل وإسحاق ، بل إنه رُزق بإسماعيل قبل إسحاق بسنوات ، أى أن إسحاق لم يكن وحيد أبيه يوما من الأيام . فهذه

كذبة شنعاء ، ويزيدها شناعة أن تُنْسب إلى الله سبحانه .

والعجيب أن إبراهيم ، حينما يأمره الله بذلك ، لا يجد فى الأمر ما يدعو إلى الاستغراب ، برغم أن الله كان قد بشّره بأنه سيكون له من إسحاق هذا نسل (١٧) ، ولم يكن إسحاق حين أُمر إبراهيم بذبحه إلا صبيا صغيرا لم يتزوج بعد . وكان ينبغى أن يسأل إبراهيم نفسه : كيف يأمرنى الله بذبح ابنى قبل أن يتزوج وتكون لى منه ذرية حسبما بشّرنى ؟

ويتناقض كاتب السفر فى تفسيره لتسمية « بئر سبع » بهذا الاسم : فمرَّةً يقول إن إبراهيم كان قد أعطى أبيمالك سبع نعاج لكى تكون له شهادة بأنه حفر تلك البئر (١٨) ، ثم يعود بعد عدة صفحات فيقدم تفسيرا آخر مخالفًا لهذا كل المخالفة ، إذ قال إن عبيد إسحاق (بعد أن كان إبراهيم عليه السلام قد انتقل إلى جوار ربّه بزمن طويل) جاءوا وأخبروه عن بئر حفروها ووجدوا فيها ماءً ، فسمّى هذه البئر « شبْعة » ، ولذلك سميت المدينة باسم « بئر سبع » (١٩) ، أى على اسم البئر المذكورة .

وفى هذا السفر أيضًا أن يعقوب (بن إسحاق ورفقة) يشترط على الله لكى يؤمن به أن ينجيه من معاطب الطريق ويعيده إلى بيته

سالما ويرزقه المطعم والملبس (٢٠) . فانظر إلى هذا الإيمان المشروط ! ويزيد الأمر عجبا أن يُنْسب ذلك إلى نبىّ ابن نبىّ !

وفيه أيضا أن الله قد تجلى له فى الطريق فاشتبكا معًا فى صراع طويل ومرير حتى طلوع الفجر وأن يعقوب قد أمسك به سبحانه إمساكة لم يستطع أن يتخلص منها إلا بعد أن جمع كل قوته وضربه على حُقّ فخذه بعزم اليائس الذى لم يكن يصدق بالنجاة من غريمه (٢١) .

ثم كيف تكون نبيّةً من تحقد على ابن ضرّتها كل ذلك الحقد الذى دفع سارة إلى أن تطلب من إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها إسماعيل ويحرمه من الميراث ويجعله كله لابنها إسحاق ظلما وعدوانا ؟ وقد كان لها ما أرادت (٢٢) .

أم كيف تكون نبيّةً من ترسم ، كما رسمت رفقة ، لأحد ابنيها خطة كذب وغدر وسفالة ليسرق لنفسه البركة التى كان أبوه سيعطيها لأخيه الاكبر فتتسبّب فى حقد متأجج بين فلذتى كبدها لا يخبو مع الأيام ؟ (٢٣) إن هذه ليست أخلاق الأنبياء ، حتى لو كنّ من الجنس اللطيف ! ثم إنه لم يكن هناك أى سبب من شأنه أن يدفع تلك « النبية » المزعومة أن تصنع ما صنعت ، بل الأمر كله لا يعدو أن

يكون نزوة سخيفة حمقاء لا يمكن أن تقع فيها أيّ أم عندها مسكة من عقل فضلاً عن نبيّة !

فهذا عن النبوة المزعومة لسارة ورفقة . ونأتى إلى مريم بنت عمران . ولست أظن أن المقصود أم المسيح عليه السلام ، فالنصارى لا يسمونها مريم بنت عمران ، بل يعترضون على القرآن لذلك ، قائلين إنه يخلط بينها وبين مريم أخت موسى وهارون ، وإن اسم أبيها هو يواقيم ، فضلاً عن أنهم ، فيما نعرف ، لا يقولون بنبوة مريم أمّ عيسى . إنما المقصود مريم أخت موسى وهارون عليهما السلام ، فأبوهم هو عمرام (« عمران » فى اللغة العربية) على ما مرّ بيانه . وقد وردت إشارة إلى نبوة مريم هذه فى سفر « الخروج » من العهد القديم ، إذ جاء فيه النص التالى فى سياق حكايته لغرق فرعون وجنوده فى اليم ونجاة بنى إسرائيل : « فأخذت مريمُ النبيةُ أختَ هارون الدُّفَّ بيدها . وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص وأجابتهم مريم . رنّموا للرب فإنه قد تعظّم . الفرسَ وراكبه طرحهما فى البحر » (٢٤) . وهذه ، فيما أعرف ، هى الإشارة الوحيدة إلى نبوتها فى العهد القديم .

وإنه لغريب جد غريب ألاّ يُذْكر لتلك النبية المدّعاة عمل

إلا الدق على الدفّ لضبط الإيقاع للراقصات ! ترى أهذه نبية أم « عالمة » رقّاقة ؟ وأين يا تُرى نحن ؟ أفى ملهى ليلى أم فى حضرة أنبياء ؟ إن مكان هذه المرأة المناسب هو ثلاثية نجيب محفوظ لا كتاب يقول أتباعه إنه مقدس وموحًى به من السماء !

ثم نلتقى مع مريم هذه ثانيةً فى سفر « العدد » . وليس الموقف الذى سنقابلها فيه أفضل كثيرا من سابقه . وإذا كانت فى الموقف الماضى تمسك بالدف لتوقع عليه لمجموعة الراقصات فإنها هنا تغتاب أخاها موسى وتحقد عليه : « وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها . لأنه قد اتخذ امرأة كوشية . فقالا هل كلّم الرب موسى وحده . ألم يكلمنا نحن أيضا . فسمع الرب . وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » . وقد غضب الله عليهما لذلك ، وإن كان قد عاقبها وحدها (ولا ندرى السبب فى هذا) وضربها بالبرص ! (٢٥) ونتساءل مرة أخرى : أيمكن أن تكون مثل هذه المرأة نبية ؟ لقد هَزلت النبوة هزالاً قبيحا إذن حتى سامها كل مفلس ! وأحب أن يعرف القارىء أنه لم يحدث أن كلم الله هارون . وفوق ذلك فهارون ليس نبيا من أنبياء الله فى العهد القديم ، إنما هو نبىّ

لموسى (٢٦) ، وموسى هو الذى كان يصدر إليه الأوامر بوصفه إلهًا له . وقد مرّت الإشارة إلى ذلك . كما لم يُذْكر فى أى موضع من العهد القديم أن الله قد كلّم مريم ، على عكس ما يقول كاتب سفر « العدد » فى النصّ الذى مرّ آنفا . ولم يرد البتة فى العهد القديم أن مريم هذه قد بلّغت عن ربها لأحدٍ شيئا . ثم إن الله سبحانه لا يعاقب أنبياءه ، بله يضربهم بالبرص .

وتبقى حنة . وهى حنة بنت فنوئيل ، التى يقول عنها لوقا فى إنجيله : « وكانت نبيةٌ حنّةُ بنت فنوئيل من سبط أشير . وهى متقدمة فى أيام كثيرة . قد عاشت مع زوجٍ سبع سنين بعد بكوريتها . وهى أرملة نحو أربع وثمانين سنة لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلا ونهارًا » (٢٧) . وكما ترى فليس فى النصّ (ولا فى أى مكان آخر من لوقا أو غيره من الأناجيل) كيف أصبحت هذه المرأة نبية . إنما هو مجرد ادّعاء ليس غير . بل إن النص نفسه ليكذّب هذا الادعاء ، إذ فيه أنها لم تكن تفارق الهيكل وأن كل ما كانت تفعله هو الصوم والصلاة ، فأين ومتى وكيف كانت تمارس مهام النبوّة المزعومة ؟ إن القرآن يقول : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم » ، بما يفيد أن المسألة ليست مجرد إلهام أو وحى ، إنما

هى رسالة يرسل الله بها رجالاً إلى أقوامهم ، فليدلنا من يكذّبون القرآن على امرأة (امرأة واحدة) قد أرسلها الله إلى قومها .

وإذا كانت الكهانة فى الشريعة اليهودية ، كما هو معروف ، مقصورة على الذكور وحدهم من بنى لاوى ، فكيف يمكن أن يكون باب النبوة مفتوحا على مصراعيه للرجال وللنساء على السواء رغم أن النبوّة أهم وأخطر من الكهانة بمراحل ؟ بل إنه حينما اختار موسى سبعين من كبار قومه ليذهبوا معه إلى خيمة الاجتماع حيث يقفون هناك وينْزل الله ويتكلم معهم ويأخذ من الروح الذى على موسى ويضع عليهم حتى يحملوا معه ثقل الشعب ولا ينفرد هو وحده بهذا العبء كان أولئك السبعون كلهم رجالاً بحسب الأمر الإلهى كما جاء فى سفر « العدد » . وقد حدث حين نزل الله سبحانه فى سحابة وتكلم معهم وأخذ من الروح الذى على موسى ووضع عليهم أن « تنبأوا » جميعًا ، حسبما جاء فى السفر المذكور (٢٨) .

وفى الحقيقة فإنه يصعب علينا تمامًا أن نتصور امرأة مرسلة لهداية الناس وقيادتهم . إن المرأة بطبيعتها ضعيفة المُنّة ، وتتعرض للحيض والحمل والولادة والنفاس ، وتخضع لزوجها وبخاصة فى بلاد الشرق حيث ظهرت أولئك النبيات فى زعم المعترضين ، فكيف يمكنها

أن تقوم بوظيفة الرسالة بجلالها وقدسيتها وتبعاتها الثقال التى لا يقدر عليها إلا الأفذاذ أولو العزم من الرجال ؟ أليس مضحكا أن نتخيل نبية حائضا أو حاملا قد برز بطنها للأمام فهى تتأوه وتضع يديها على خاصرتيها وتتقايأ ، أو وهى تضع وليدها وصراخها يبلغ عنان السماء ؟ وماذا تفعل إذا أُمرت أن تبلّغ للناس وحيا مما ينزل عليها فاعترض زوجها ونهاها عن الخروج من البيت مهدّدا إياها بالطلاق ؟ إننى هنا لا آتيكم ، فإن الشريعة اليهودية مثلا تشترط موافقة الأب على نذر ابنته ، والزوج على نذر زوجته ، وإلا فلا نذر عليهما (٢٩) .

وإن من يعرف أحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالمرأة عند ولادتها وحيضها ليستغرب أشد الاستغراب مما جاء فى الكتاب المقدس عن وجود نساء نبيات . إن الطمْث عند اليهود يمتد سبعة أيام ، وكل من يمسّ المرأة فى هذه الأثناء يظل نجسًا إلى المساء ، وكذلك كل ما تضطجع أو تجلس عليه . بل إنه إذا مس أحد فراشها فإنه يكون أيضا نجسًا حتى المساء ، وعليه أن يغسل ثيابه ويستحم . ويسرى هذا الحكم أيضا حتى لو لم يكن الدم الذى يسيل من المرأة دم حيض . وعندما تطهر المرأة من دمها فإنها تبقى سبعة أيام أخرى قبل أن تطهر ، وفى اليوم الثامن تأخذ ذبيحة خطية وذبيحة مُحْرقة وتذهب

بهما إلى باب خيمة الاجتماع حيث تبقى هناك ولا تدخل ، فتسلمهما للكاهن ليكفر بهما عنها من سيل نجاستها. كذلك فإن الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة ينجسهما إلى المساء . أما الولادة فإنها تنجّس المرأة أسبوعًا إن كان المولود ذكرا ولا تمس حينئذ شيئا مقدسًا ثلاثة وثلاثين يومًا ، وأما إن كان المولود أنثى فتنّجُس الأم لمدة أسبوعين ولا تمس شيئا مقدسًا ستة وستين يوما (٣٠) .

إن النبوّة فى الكتاب المقدس تبدو فى كثير من الأحيان وقد خلت من مضمونها الذى نعرفه : فنوح مثلاً يسكر حتى يفقد وعيه وينطرح على الأرض وتتعرى سوأته أمام كل من هبّ ودب . وإبراهيم يتنازل عن امرأته مرتين لفرعون وأبيمالك ، ولولا تدخل السماء فى اللحظة الأخيرة لاضطجع معها ذانك العاهلان . ومريم تضرب بالدف للراقصات وتحقد على أخيها وتغتابه ، ويضربها الله بالبرص . وشاول (وكان فى عهد داود) عندما يتنبّأ يخلع ثيابه وينطرح عريانا نهاره كله وليله أمام الناس (٣١) .

والأنبياء يظهرون فى نفس الوقت وفى نفس الموضع جماعات جماعات ، وقد يتنبّأون على أنغام الرباب والدفّ والناى والعود (٣٢) ، حتى ليقول العقاد بحقّ إن شأن الأكثرين منهم لا يزيد على شأن

الدراويش والمجاذيب الذين يباركون الأطفال ، ويشفون المرضى ، ويتفوهون بالأقاويل التى تقبل التأويل على كل وجه حسبما يرتاح إليه السامع ، ويعيشون على الفضلات التى يلقيها إليهم الناس (٣٣) .

ولا يميز كتّابُ العهد القديم بين الأنبياء الصادقين والأنبياء الكذبة ، فكلهم عندهم أنبياء (٣٤) . أما فى الإسلام فالنبىّ شىء ، والمتنبىء شىء آخر .

نخلص مما مرّ إلى أنه لا يحق للمعترضين أن يكذّبوا ما جاء فى القرآن من قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم » ، فقد بيّنا أن « رجالاً » فى الآية تعنى « بشرًا » ، وهو ما لا يمكن أن يعارضه أحد ، إذ ليس فى تاريخ النبوات أن الأنبياء كانوا فى يوم من الأيام ملائكة . ثم إننا لم نكتف بهذا ، بل أوضحنا أن الله لا يمكن أن يكون قد « أرسل » رسلا من النساء . وليس فى العهد القديم نبيات مرسلات . أما إن كان المقصود مجرد الإلهام أو الوحى لبعض النسوة بتطمين أو بشارة ، كما هو الحال مع أم موسى وأم عيسى عليهم جميعًا السلام ، فذلك شىء آخر لم تنفه الآية ، بل تحدث القرآن عنه .

وعلى هذا فإن كلمة « رجالاً » (فى الآية التى نحن

بصددها) تدل فى نفس الوقت على أن الأنبياء الذين « أرسلهم » اللّه لهداية العباد وقيادتهم كانوا بشرا ، وكانوا رجالاً لا نساء . وهذا من أسلوب القرآن الفذّ ، إذ إنه بكلمة واحدة قد أصاب المعنيين جميعًا .

الهوامش

١- النحل / ٤٣ ، والأنبياء / ٧ .

٢- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٠٥ - ٣٠٦ .

٣- الفرقان / ٧ ، ٢٠ مثلا .

٤- الأنبياء / ٣ .

٥- الأنعام / ٨ ، وهود / ١٢ ، والإسراء / ٩٢ ، ٩٤ ، والفرقان / ٧ ، ٢١ ، والزخرف / ٥٣ .

٦- مثلا هود / ٢٧ ، وإبراهيم / ١٠ ، والمؤمنون / ٢٤ ، ٣٣ ، والشعراء / ١٥٤ ، ١٨٦ ، وفصلت / ١٤ ، والقمر / ٢٤ .

٧- الأنبياء / ٧ - ٨ . وانظر الآية / ٣٤ من نفس السورة .

٨- انظر مثلا مختار الصحاح والمنجد والمعجم الوسيط / مادة « رج ل » .

٩- تكوين / ٣٢ / ٢٤ - ٣٠ .

١٠- دانيال / ٩ / ٢١ .

١١- تكوين / ١٢ / ٧ ، و ١٧ / ١ ، و ١٨ / ١ ، و ٢٦ / ٢٤ .

١٢- تكوين / ١٨ / ٢٠ - ٢١ .

١٣- تكوين / ١٢ / ١٠ - ٢٠ .

١٤- تكوين / ٢٠ / ١ - ٧ .

١٥- تكوين / ٢٦ / ١ - ١١ .

١٦- تكوين / ٢٢ / ٢ .

١٧- تكوين / ١٧ / ١٩ ، و ٢١ / ١٢ .

١٨- تكوين / ٢١ / ٢٥ - ٣١ .

١٩- تكوين / ٢٦ / ٣٢ - ٣٣ .

٢٠- تكوين / ٢٨ / ٢٠ - ٢٢ .

٢١- تكوين / ٣٢ / ٢٤ - ٣٠ .

٢٢- تكوين / ٢١ / ٩ - ١٠ .

٢٣- تكوين / الأصحاحان ٢٧ - ٢٨ وما بعدهما .

٢٤- خروج / ١٥ / ٢٠ - ٢١ .

٢٥- عدد / ١٢ / ١ - ١٠ .

٢٦- فبما عدا هذه الإشارة إلى نبوته لموسى فإنه عليه السلام لا يُذكر فى العهد القديم إلا بوصفه كاهنا لا غير .

٢٧- لوقا / ٢ / ٣٦ - ٣٧ .

٢٨- عدد / ١١ / ١٦ - ١٧ ، ٢٤ - ٢٩

٢٩- عدد / الأصحاح ٣٠ كله

٣٠- لاويين / ١٢ / ١ - ٨ .

٣١- صموئيل الأول / ١٩ / ٢٤ .

٣٢- انظر مثلا صموئيل الأول / ١٠ / ٥ - ١١ ، و ١٩ / ٢٠ - ٤٢ .

٣٣- انظر عباس محمود العقاد / مطلع النور (ضمن « موسوعة العقاد الإسلامية » / ١ / ٨٢١) .

٣٤- انظر مثلا عدد / ١١ / ٢٤ - ٢٩ ، وتثنية / ١٣ / ١ - ٥ ، و ١٧ / ٢٠ - ٢٢ ، وارميا / ٥ / ٣١ ، و ٦ / ١٣ ، و ١٤ / ١٤ - ١٥ ، و ٢٣ / ١١ - ٤٠ ، وحزقيال / ٢٢ / ٢٥ ، ٢٨ . وانظر كذلك رؤيا يوحنا اللاهوتى / ١٦ / ١٣ ، و ٢٠ / ١٠ .

٧- كلام عيسى فى المهد

كذلك كان ما ذكره القرآن من كلام عيسى فى المهد مثارًا لاعتراض النصارى . وملخص كلامهم أنهم ، رغم تمجيدهم له عليه السلام ، لا يعرفون له تلك المعجزة ، وكذلك لا يعرفها اليهود ولا المجوس ولا الصابئة ولا الهنود ولا الترك ولا الخزر ، ولم تسجّل فى الإنجيل رغم أن الكلام فى المهد أعجب من كل عجب ، إذ هو أمر ينفرد به عيسى دون سائر الأنبياء والمرسلين ، فضلاً عن أن الخداع فيه غير ممكن ، فالطفل الرضيع لا يستطيع حيلة ولا تمويها (١) .

وقد رد الجاحظ ، رحمه اللّه ، بأن اليهود لا يقرون لعيسى بأية معجزة (٢) ، بل يرون أنه كان صاحب رُقَى وشعوذة وحيل وأنه كانت عنده معرفة بالطب والكتب ، وأن ما يُرْوى عن شفائه المقعدين إنما كان باتفاق سابق بينه وبين بعض من الناس تظاهروا بأنهم مرضى فشفاهم . أما بالنسبة لمن قيل إنه أحياه بعد موته فلم يكن فى زعمهم ميتا ، بل كان الأمر مجرد إغماء ، فانتهز عيسى الفرصة وأوهم الناس أنه كان ميتا وبأنه أعاد إليه الحياة . وبالمثل فالمجوس لا تقر لعيسى بأية معجزة . أما الهند والخزر والترك فإنهم لا يعترفون لنبى بأية معجزة بل لا يروون سيرة أى منهم ، فلماذا الاستشهاد بهم فى

مسألة كلام عيسى فى المهد بالذات ؟

ويبقى النصارى . وردّ الجاحظ هنا هو أنهم إنما قبلوا دينهم عن يوحنا ومتى (من الحواريين فى زعمهم) ومارقس ولوقا (من التابعين) ، وهؤلاء الأربعة لا يُؤْمن عليهم الغلط ولا النسيان ولا تعمد الكذب ولا التواطؤ على اقتسام الرئاسة . وإن اختلاف أناجيلهم وتناقضها مع بعضها البعض لدليل على ذلك (٣) .

وصحيح تماما ما يقوله الجاحظ عن اختلاف الأناجيل وتناقضاتها بل وأخطائها أيضا . ويكفى أن تقول هذه الكتب إن عيسى هو الله أو ابن اللّه حتى تنتفى عنها الثقة ، إذ إن هذا بطبيعته ضلال بل كفر صريح . ثم إنه من الغريب المضحك أن يقال مثلاً إن هذا الإله (أو ابن الإله) قد تعمّد على يد أحد من عباده ، وهو يحيى عليه السلام (٤) ، أو إن الشيطان قد قاده إلى جناح الهيكل فى القدس ثم إلى إحدى قمم الجبال ليختبره وبعد ذلك أمره بالسجود له . فأى إله ذلك الذى يحتاج إلى التعمد أصلاً ، فضلاً عن أن يتم التعمد على يد أحد من مخلوقاته ؟ وأىَ إله ذلك الذى يقوده إبليس فينقاد له ؟ وكيف يطمع إبليس فى ربه إلى هذا الحد المخزى ؟ والطريف أن عيسى (وهو إله فى زعمهم) يرد على الشيطان حين يأمره بالسجود له

قائلا : « مكتوبٌ : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » (٥) ، أى أن عيسى يعترف بأنه مجرد عبد وأن عليه أن يسجد لربه . فكيف يكون إلهًا ويكون له فى نفس الوقت إله ؟ وبالمناسبة فتعميد يحيى لعيسى واختبار إبليس له ليسا مذكورين فى إنجيل يوحنا ، على عكس الأناجيل الثلاثة الأخرى .

كذلك فبين سلسلتى النسب اللتين أوردهما متّى ولوقا للمسيح ابن مريم عليه السلام اختلاف شديد حسبما أشرنا من قبل . ويمكن للقارىء الرجوع إليهما بنفسه ليرى كثرة الاختلافات والتناقضات التى بينهما . وحسبنا أن نقول هنا مرة أخرى إن كلتا السلسلتين تنسبه إلى يوسف النجار . بل إن أمه هى أيضا تقول له إن يوسف أبوه . وقد مرّ هذا آنفا .

وعيسى عليه السلام ، حسبما جاء فى الأناجيل ، يقول مؤكدا : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمّل . فإنى الحقّ أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكلّ . فمن نقض إحدى الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدْعى أصغر فى ملكوت السماوات . وأما من عمل وعلّم فهذا يُدْعى عظيما فى ملكوت

السماوات » (٦) . وعقيب ذلك ينطلق هو نفسه هادما ما جاء فى الناموس . مثال ذلك أن الطلاق كان مشروعًا قبله عليه السلام فجاء هو وحرّمه إلا لعلة الزنى ، بل جعل الزواج من المرأة المطلّقة لونا من ألوان الزنى . كما أن الحلف بالله كان جائزا قبلا، ثم أتى هو فحرّمه . كذلك حرّم القصاص ، بل نهى عن مقاومة الشرّ البتة (٧) . ولم يكتف بذلك بل جعل ما يأمر به تلاميذُه أو ينهون عنه شرعًا إلهيا واجبا (٨) . ومعروف ما فعله بولس بعد ذلك من تحليل الميتة والخنزير وإلغاء الختان . وهذا كله نقض للناموس .

وهو ، حسبما جاء فى الأناجيل الحالية ، يقول لبطرس : « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة (يقصد بالصخرة هنا بطرس) أبنى كنيستى وأبوابُ الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفتاح ملكوت السماوات . فكل ما تربطه فى الأرض يكون مربوطا فى السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات » (٩) ، ثم يستدير ٣٦٠ درجة قائلاً لبطرس هذا نفسه بعد ثلاثة أسطر : « اذهب عنى يا شيطان ، أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (١٠) ، وذلك حين انتهره هذا التلميذ . فأى إله ذلك الذى يغير رأيه هكذا وشيكا ؟ وأغرب من ذلك أن بطرس عندما انتهره كان

يناديه بـ « يا رب » . فكيف ينتهر إنسان ربه ؟

وهو عليه السلام يقول فى موضع من الأناجيل : « لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخّرك ميلا فاذهب معه اثنين ... أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم » (١١) ، ثم نسمعه فى موضع آخر يقول : « جئت لألقى نارا على الأرض . فماذا أريد لو اضطرمت ... أتظنون أنى جئت لأعطى سلاما على الأرض . كلا أقول لكم . بل انقساما » (١٢) .

كما قال عن نفسه إنه لم يأت إلى العالم ليدين الناس : « لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلّص به العالم » (١٣) . وبعد قليل نجد عكس ذلك ، إذ يعود فيقول إن « الآب لا يدين أحدا بل أعطى كل الدينونة للابن ... وأعطاه سلطانا أن يدين أيضا لأنه ابن الإنسان ... كما أسمع أدين ودينونتى عادلة » (١٤) .

وهو يؤكد أن شهادته لنفسه ليست حقا (١٥) ، لكنه لما حاكمه الفريسيون إلى كلامه هذا عن نفسه قائلين له : « أنت تشهد لنفسك . شهادتك ليست حقا » نقض ما كان قد قاله وأكد لهم أن شهادته لنفسه حق (١٦) .

وحتى فى قصة الصلب ، والصلب أساس المسيحية ، نجد عجبا : فالأناجيل الثلاثة الأولى تقول إن رجلاً قيروانيا اسمه سمعان هو الذى حمل الصليب الذى قُتل عليه المسيح (١٧) ، على حين يذكر إنجيل يوحنا أنه هو الذى حمل صليبه بنفسه (١٨) .

ومرة يقال لنا إن اللصين اللذين صُلبا معه كانا يعيّرانه ويستهزئان به كلاهما لأنه رغم ادعائه أنه ابن الله قد عجز عن تخليص نفسه من الصلب (١٩) ، ومرة أخرى يقال إن أحد اللصين فقط هو الذى عيّره ، أما الآخر فكان متعاطفا معه وانتهر زميله بشدة ، ثم ابتهل إلى عيسى قائلاً : « اذكرنى يا رب متى جئت فى ملكوتك » ، فيعده عيسى بأنه سيكون معه فى الفردوس فى نفس ذلك اليوم الذى وقع فيه الصلب على زعمهم (٢٠) . أما يوحنا فلم يقل فى هذا الأمر شيئا فأراح واستراح .

وحتى الكلمات التى يُدّعى أنه قد نطق بها وهو يسلم الروح نجد الأناجيل مختلفة فيها اختلافًا عنيفا : فهى عند متى ومرقس : « إلهى إلهى لماذا تركتنى » (٢١) ، وفى إنجيل لوقا : « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى » (٢٢) ، وفى يوحنا : « قد أُكْمل » (٢٣) . ثم أليس عجيبًا أن هذا الإله الذى نزل من عليائه

ليُصلّب تكفيرا عن ذنوب البشرية التى ورثتها عن أبيها آدم ، كما يقولون ، يأتى فى آخر لحظة فيضعف كل هذا الضعف ويدعو (يدعو من ؟ يدعو إلهه !) أن يهب لنجدته ، ويستغرب فى ألم لأنه تركه ولم يبادر إلى إنقاذه ؟

أما الضابط الذى كان يشرف على عملية الصلب ففى بعض الأناجيل أنه قال بعد أن شاهد بعض المعجزات التى وقعت آنذاك : « حقا كان هذا (الإنسان) ابن الله » (٢٤) ، وفى بعضها الآخر : « فى الحقيقة كان هذا الإنسان بارا » (٢٥) . وفى إنجيل يوحنا لا يوجد شىء من ذلك البتة .

وبينما يذكر الإنجيلان الأولان أن بيلاطس قبل أن يسلم عيسى للصلب قد قام بجلده (٢٦) نجد الإنجيلين الأخيرين لا يقولان شيئا عن عملية الجلد تلك .

فهذه هى الأناجيل التى يجعلونها مقياسًا للقرآن ويخطئونه لأنه ذكر شيئًا لم يرد فيها . وأحب أن أنبه القارىء إلى أن ما ذكرته من الاختلافات والتناقضات بين الأناجيل إنما هو غيض من فيض . وقد أفاض المعنيون بدراسة الكتاب المقدس من غربيين وشرقيين نصارى ومسلمين فى رصد هذه الأخطاء وذكرها ، فليرجع القارىء

إليهم إذا أراد .

وعلينا ألا ننسى أن الأناجيل الأربعة الموثوق بها عندهم قد كُتبت بعد رفع عيسى عليه السلام بعشرات السنين ومن الذاكرة ، أى بعد أن كانت قد نُسيت أشياء وزيدت أشياء واقتحمت الوثنيةُ العقائد والتشريعات النصرانية . وكلامه فى المهد معجزة قد وقعت قبل أن يصير نبيّا ويصبح مهمّا فى نظر الناس بزمن طويل بحيث يهتمون بما يقول أو يفعل ويحفظونه ، وكان ذلك أمام قوم أمه ولم يكن أمام الناس جميعًا . فأغلب الظن أن ذلك هو السبب فى أن هذه المعجزة لم تشع شيوع معجزاته الأخرى . بل إنه كانت فى بعض الأناجيل التى تعتمدها الكنسية أشياء حُذفت منها ، فضلا عن ضياع معظم رسائل بولس (٢٧) .

ثم إن الأناجيل التى كُتبت عن سيرة المسيح كانت بالعشرات ، وعدم ذكر الأناجيل الأربعة لكلامه فى المهد لا يدل بالضرورة على أنه لم يقع . ويقول جماعة من اللاهوتيين النصارى إن الأناجيل الأربعة « لا تتضمن تاريخا كاملا عن أعمال ربنا المجيد وتعاليمه بل ذكر شخصه ووظيفته وتأسيس النظام المسيحى ، الذى هو موضوعه الأعظم ، على أسلوب مختصر » (٢٨) . وفى إنجيل الصبا (أو الطفولة) ، الذى

كُتب فى عصر المسيح عليه السلام ، أنه كان يخلق من الطين كهيئة الطير (٢٩) ، مع أن ذلك ليس فى الأناجيل الأربعة المعتمدة عند الكنيسة . كما ذكر له إنجيل برنابا معجزات أخرى لم ترد فى الأناجيل الأربعة ، مثل صراخ حجارة أورشليم تباركه ومعجزة المرآة (٣٠) .

وفى هذا الإنجيل أيضا أنه تكلم فى المهد ، إذ جاء فيه أن الطفل الرضيع قد حدّث المجوس الذين أتوا من بلادهم إلى المنزل الذى وُلد فيه ، محذرا إياهم أن يمروا فى طريق عودتهم بهيرودس ، حتى لا يعرف منهم مكان وجوده فيقتله (٣١) . ومن الصعب الادعاء بأن أحد من يريدون الدعاية للإسلام هو الذى كتب هذا فى الإنجيل المذكور ، إذ إن الكلام الذى ورد فى القرآن على لسانه عليه السلام وهو لا يزال رضيعًا يختلف عن هذا ، كما أن الموقف غير الموقف ، فقد وقع كلامه فى القرآن عندما أشارت أمه إليه ردّا على اتهامهم إياها بالزنى ، وكان على النحو التالى : « إنى عبد الله ، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيّا * وبرّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا * والسلام علىّ يوم وُلدْتُ ويوم أموت ويوم أُبْعث حيا » (٣٢) . فهذه التفصيلات مختلفة عما ورد فى برنابا رغم اتفاق الكتابين على كلامه فى المهد . ومثل ذلك

يقال فيما رواه إنجيل الطفولة عن كلامه وهو طفل رضيع ، إذ إن ما قاله آنذاك حسب ذلك الإنجيل هو أنه ابن الله (٣٣) .

وقد سمع النجاشى وبطارقته صدر سورة « مريم » وفيه كلامه عليه السلام فى المهد جوابًا على إشارة أمه إليه عندما اتُّهمت بأنها ولدته من سفاح ، ولم ينكر أحد منهم ذلك ، بل أقرّ النجاشى بأن ما يقوله القرآن عن عيسى عليه السلام هو نفس ما يؤمنون به (٣٤) .

وقد كان كبار رجال الدين النصارى النجرانيين الذين وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة يؤمنون بمعجزة كلام عيسى عليه السلام فى المهد ، بل إنهم اتخذوها حجّة على أنه ابن الله (٣٥) .

وكذلك أقرّ الأنبا شنودة (البابا شنودة حاليا) بما جاء فى القرآن عن كلامه عليه السلام فى المهد ، مؤكدا أنه معجزة لم تحدث لأحد من قبله ولا من بعده (٣٦) .

ويستنكر القرافى ، رحمه الله ، اعتراض المعترضين من النصارى على ما ذكر القرآن من كلام عيسى فى المهد مؤكدا أن من الغريب أن يكون إلها (فى زعمهم) قادرًا على كل شىء ، ومع هذا يترك أمه نهبًا لتهمة الزنى دون أن يبادر إلى تبرئتها . إن هذا منتهى العقوق (٣٧) . وينبغى أن نضيف هنا أنه لو لم تحدث مثل هذه

المعجزة لرُجمت مريم تبعا لشريعة موسى ، إذ ما من دليل على الزنى أوضح من الحمل ، ففى الإنجيل أنهم أتوا إلى عيسى بامرأة زانية لينفّذ فيها حكم الرجم على ما تقضى به شريعة التوراة (٣٨) .

الهوامش

١- انظر « رسائل الجاحظ » ٣ / ٣٠٦ - ٣٠٨ .

٢- ونضيف أنهم لم يكونوا يرون أنه نبي ، فضلاً عن أن يكون إلها أو ابن إله .

٣- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٢٤ - ٣٢٩

٤- متى / ٣ / ١٣ - ١٦ ، ومرقس / ١ / ٩ ، ولوقا / ٣ / ٢١ .

٥- متى / ٤ / ١ - ١٠ ، ومرقس / ١ / ١٢ - ١٣ ، ولوقا / ٤ / ١ -

٦- متى / ٥ / ١٧ - ٢٠

٧- متى / ٥ / ٣١ - ٤٢ ، ومرقس / ١٠ / ٢ - ١٢ .

٨- متى / ١٦ / ١٩ ، و ١٨ / ١٨ / ١٩ .

٩- متى / ١٦ / ١٨ - ١٩ .

١٠- متى / ١٦ / ٢٣ .

١١- متى / ٥ / ٣٩ - ٤٤ . ولوقا / ٦ / ٢٧ - ٣١ .

١٢- لوقا / ١٢ / ٤٩ - ٥١

١٣- يوحنا / ٣ / ١٧ .

١٤- يوحنا / ٥ / ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٠ .

١٥- يوحنا / ٥ / ٣١ .

١٦- يوحنا / ٨ / ١٣ - ١٤ ، ١٨ .

١٧- متى / ٢٧ / ٣٢ ، ومرقس / ١٥ / ٢١ ، ولوقا / ٢٣ / ٢٦ .

١٨- يوحنا / ١٩ / ١٧

١٩- متى / ٢٧ / ٤٣ ، ومرقس / ١٥ / ٣٢ .

٢٠- لوقا / ٢٣ / ٣٩ - ٤٠ .

٢١- متى / ٢٧ / ٤٦ ، ومرقس / ١٥ / ٢٥ .

٢٢- لوقا / ٢٣ / ٤٦ .

٢٣- يوحنا / ١٩ / ٣٠ .

٢٤- متى / ٢٧ / ٥٤ ، ومرقس / ١٥ / ٣٩ .

٢٥- لوقا / ٢٣ / ٤٧ .

٢٦- متى / ٢٧ / ٢٥ ، ومرقس / ١٥ / ١٥ .

٢٧- انظر مثلا ول ديورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ١١ / ٢٦٢ ، و ١٤ / ٢٢٠ (بالهامش) ، ومحمد جلال كشك / خواطر مسلم عن الجهاد والأناجيل والأقليات / ١٥٠ - ١٥٤ .

٢٨- كتاب « رب المجد » لجماعة من اللاهوتيين المسيحيين / ٢٢٦ - ٢٢٧ .

٢٩- نظر تفسير المنار / ٣ / ٣١١ .

٣٠- إنجيل برنابا / ترجمة د. خليل سعادة / ٢٩٢ - ٢٩٣ .

٣١- إنجيل برنابا / ٩ .

٣٢- مريم / ٢٧ - ٣٣ .

٣٣- إنجيل الطفولة / الأصحاح ١ / ٢ - ٣ (محمد عزت الطهطاوى / محمد صلى الله عليه وسلم نبى الإسلام فى التوراة والإنجيل والقرآن / ١١٠ - ١١١) .

٣٤- انظر سيرة ابن هشام / ١ / ٢٣٥ - ٢٣٧ .

٣٥- المرجع السابق ١ / ٥٧٥

٣٦- انظر مقال « القرآن والمسيحية » للأنبا شنودة / مجلة « الهلال » المصرية / ديسمبر ١٩٧٠م / ٢٥ .

٣٧- انظر القرافى / الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة / تحقيق د . بكر زكى عوض / ٣٤٧ - ٣٤٨ .

٣٨- يوحنا / ٨ / ١ وما بعدها .

٨- هل النصارى أقرب مودة من غيرهم للمسلمين ؟

وقد تطرق الجاحظ ، فى أثناء مناقشة شبهات النصارى التى عرض لها وردّ عليها فى رسالته ، إلى موقف عوام المسلمين منهم ، والسبب الذى صاروا به أحبّ إليهم من المجوس ، وأسْلم صدورًا عندهم من اليهود وأقرب مودة وأقلّ غائلة وأصغر كفرا وأهون عذابا ، وكيف يغلط كثير من المسلمين فى تأويل قوله تعالى : « لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أُنْزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا، آمنّا ، فاكتبنا مع الشاهدين * ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقّ ونطمع أن يُدْخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ * فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين » (١) .

وقد علّق الجاحظ على ذلك بقوله : « وفى نفس الآية أعظم دليل على أن الله تعالى لم يعْن هؤلاء النصارى ولا أشباههم الملكانية واليعقوبية ، وإنما عنى ضرْب (أى مثْل) بحيرا وضرب الرهبان الذين كانوا يخدمهم سلمان (٢) . وبين حمْل قوله : « الذين قالوا: إنا نصارى »

على الغلط منهم (أى على الغلط من عوام المسلمين) فى الأسماء وبين أن نجزم عليهم لأنهم نصارى : فرق » (٣) .

وهذه من المسائل التى تحتاج إلى توضيح وتفصيل أكثر من ذلك . ولابد فيها من الرجوع إلى ما قاله القرآن فى المواضع المختلفة منه فى النصارى وعقائدهم ، وعدم الاقتصار على هذه الآية التى أثارت عند عوام المسلمين هذا الإشكال ، وبخاصة أن كثيرا من النصارى من مستشرقين وعرب حينما يكتبون عن رأى القرآن فيهم وفى دينهم يستشهدون بهذه الآية الكريمة دليلاً على رضا الإسلام عنهم ورأيه الطيب فيهم والمصير السعيد الذى ينتظرهم هم وقساوستهم ورهبانهم . وإلى القارىء خلاصة ما يخرج به الباحث فى القرآن عن وجه الحق فى هذه القضية :

لقد وصف القرآن الكريم فى عدد من المواضع انحرافات النصارى ، ومنها عقيدتهم فى « التثليث » ، وجعلها كُفْرًا من الكُفْر ، وحكم على الذين يقولون بها بأنهم كُفَّار مشركون . قال تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم . وقال المسيح : يا بنى إسرائيل ، اعبدو الله ربى وربكم . إنه من يُشْرِكْ بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار . وما للظالمين من أنصار * لقد كفر

الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وما من إلهٍ إلا إلٰه واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٤) . وهو يؤكد أن عيسى لم يكن إلا عبدا لله ورسولا اختاره ليبلغ رسالته إلى بنى إسرائيل ، ويصمُ الذين يدّعون خلاف ذلك بالكذب والإفساد ، ويدعو إلى لعنهم : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقهُ من تراب ثم قال له : كُنْ ، فيكون * الحقّ من ربك فلا تكُنْ من المُمْترين * فمنْ حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهلْ فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصصُ الحقّ . وما من إله إلا الله . وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولّوا فإن الله عليم بالمفسدين » (٥) .

وقد تكرر قرْنُهُ بينهم وبين اليهود ، مما يدلّ على أن هناك أوجه تشابه بين الفريقين . قال عز وجل : « وقالت اليهود : عُزيْرٌ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبلُ . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم . وما أُمِروا إلا ليعْبدوا إلها واحدًا لا إله إلا هو . سبحانه عما يشركون *

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يُتِمّ نوره ولو كره الكافرون » (٦) . وقال أيضا : « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هُودًا أو نصارى . تلك أمانيّهم . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٧) . وقال سبحانه : « وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق . يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير » (٨) . وقال تعالى : « وقالوا : كونوا هُودًا أو نصارى تهتدوا . قل : بل ملّة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » (٩) .

وهذا الاقتران بينهما فى القرآن غير مقصور على الكلام عن عقائدهم المنحرفة بل يشمل أيضا مشاعر الكراهية والحقد التى يكنونها للمسلمين ورغبتهم فى أن يخّتلوهم عن دينهم الحقّ ويجرّوهم معهم فيما هم فيه من كفر وضلال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم . قل : إن هُدى الله هو الهُدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىّ ولا نصير » (١٠) . « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم

الحق . فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره . إن الله على كل شىء قدير » (١١) .

كذلك فإن رأى القرآن فى معظم رجال الدين من اليهود والنصارى أنهم يصدون عن سبيل اللّه ويأكلون أموال أتباعهم بالباطل : « يا أيها الذين آمنوا ، إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصُدّون عن سيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (١٢) . وهو يتوعدهم بعذاب أليم فى نار جهنم يحرق أبدانهم ويكويها : « يوم يُحْمى عليها فى نار جهنم فتُكْوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » (١٣) . وقد رأينا كيف أن أتباعهم قد اتخذوهم أربابا من دون اللّه . وبطبيعة الحال فقد باركوا هذا ودفعوا إليه واستزادوا منه ، وإلاّ لكفّ أتباعهم عنه ولكان القرآن حينئذ قد برّأهم من جريمة هؤلاء الأتباع وكفرهم .

مما تقدم يتبين لنا رأى القرآن السّىء فى النصارى وعقائدهم وبغضهم للإسلام والمسلمين وكذلك فى رجال دينهم . وهم فى ذلك مثل اليهود وأحبارهم ، فلماذا قال القرآن فيهم إذن : « لتجدنّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين

آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أُنْزِل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا ، آمنّا ، فاكتبنا مع الشاهدين * ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدْخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ * فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين » ، مما قد يُفْهم منه أنه يفرّق بينهم وبين اليهود فى مسألة المشاعر تجاه المؤمنين وفى مسألة المصير الذى ينتظرهم ؟ هل يعقل أن يكون للقرآن رأيان فى النصارى متناقضان هذا التناقض ، إذ يصمهم بالكفر والشرك والكذب والإفساد والفسوق فى مواضع منه ويتوعدهم بما يتوعد به كل كافر كذاب ، ثم يأتى فى هذه الآيات الأخيرة فيْذكَرهم بأنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا ويتحدث عن رقة قلوبهم ومسارعتهم إلى الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ويبشرهم بما أثابهم الله به من الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والخلود فيها جزاءَ لهم على إيمانهم وإحسانهم ؟

لقد وجدت عددا من الكتاب فى بعض البلاد العربية يذكر النصارى بخير ويثنى عليهم ويمدحهم مستشهدا بهذه الآيات ، فكنتُ

أتعجب من ذلك وأستغربه أشد الاستغراب ، وأحاول أن أبين أن الأمر ليس كما يظنون . ولكن فريقا من الذين كنتُ أحاورهم كانوا لا يقتنعون تمامًا بما أقول .

وقد كان منطلقى هو أن القرآن لا يمكن أن يتناقض بعضه مع بعض . فإذا كان يكفر النصارى ويتوعدهم بالعذاب الأليم ويدعوهم إلى التوبة مما هم عليه فلا يُعقل أن يرجع فيقول فيهم عكس ذلك مع بقائهم على ما هم عليه وعدم توبتهم منه . وتوبتهم لن تكون بطبيعة الحال إلا بالتصديق برسالة محمد عليه الصلاة والسلام والتحول إلى الإسلام .

وكنتُ أضيف أن عداوة النصارى للإسلام طوال هذه القرون الأربعة عشر هى عداوة لدود ، وأن المسلمين لم يروا منهم رحمةً ولا عدلا أو إنصافا ، وأن مؤامراتهم علينا لم تنته ، وأنه قد اتضح لكل إنسان الآن ما يخططون له لفتنتنا عن ديننا وإدخالنا فى دينهم ، وكأنه لم يكفهم ما أنزلوه بنا من ويلات وتقتيل وتنكيل واستنزاف ثرواتِ أيام أن كان استعمارهم لبلادنا استعمارًا ظاهرًا ، ولا مازالوا يُنْزلونه بنا من هذا كله وغيره فى هذه الأيام السُّود التى اتخذت سيطرتهم علينا أساليب أخفى وأدهى ، وأن رجال دينهم من قساوسة ورهبان كانوا ومازالوا هم

الذين يحرضونهم ويقودونهم ويمنّونهم أثناء هذا العدوان الشرس الذى نصطلى ناره منذ قرون . وكنتَ أذكّر بالحروب الصليبية التى سعر نارها هؤلاء القساوسة والرهبان ، والفظاعة البشعة التى عامل النصارى بها أجدادنا فى الأندلس ، والغدر والخيانة اللّذيْن توسلوا بهما إلى خنق الأنفاس الأخيرة للمسلمين هناك حتى أصبحت البلاد كاثوليكية مثلّثة بعد أن كانت توحّد الله وتؤمن بمحمد عليه السلام وبالقرآن الذى جاء به من عند ربه ، وانتزاع فلسطين من أيدينا وإعطائها غنيمة باردة لليهود ، والقسوة المتوحشة التى تُصبّ على الأقليات (وأحيانا الأكثريات) المسلمة فى البلاد التى يحكمها النصارى ، والسخائم السوداء التى تلطّخ ما يكتبه معظم المستشرقين وكل المبشرين عن محمد عليه الصلاة والسلام ودينه الحقّ . ثم ها نحن أولاء قد رأينا بأم أعيننا ما فعله الغرب (الغرب كله ، لا الصرب وحدهم كما تحاول وسائل الإعلام أن تقنعنا) بإخواننا المسلمين فى يوغسلافيا السابقة ، كراهية منهم أن يسمعوا فى أوربا كلمة التوحيد .

ثم كنت أقول إنه لا شىء فى هذه الآيات الكريمة يمكن أن يصدّق على النصارى : فلا هم ينطوون لنا على أية مودة ، ولا هم يظهرون نحونا تواضعًا إذا كان فى يدهم القوة والسلطان ، ولا أعينهم

تفيض من الدمع عند سماعهم القرآن الكريم ، ولاهم يعترفون بالحق ويعلنون الإيمان بمحمد ودينه . كذلك فإن الآيات تعلّل ما ذكرتّه من مودتهم للمسلمين بأن منهم قسيسين ورهبانا ، فمتى كان القسيسون والرهبان يبيّنون لأتباعهم أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى رسالة الحق وأنهم ينبغى أن يؤمنوا بها ، ثم لا يكتفون بهذا بل يسارعون إلى أن يكونوا هم أول المؤمنين ؟

وأخيرا كيف يمكن أن يقول القرآن عن النصارى إنهم أقرب لنا مودة وهو ينهانا نهيًا حاسمًا فى نفس السورة (الآية / ٥١) عن موالاتهم بأية حال ؟ إذن ما وجه الحق فى هذه الآيات ؟ الحقيقة أنها قد نزلت فى فريق مخصوص من النصارى وفدوا على المدينة وقرأ عليهم النبى صلى الله عليه وسلم بعض آيات القرآن فلمست قلوبهم وتفتحت لها عقولهم وهزتهم من أعماقهم ففاض من عيونهم الدمع رقةً وحنانًا وتواضعًا وإخباتًا ، وسرعان ما أعلنوا إسلامهم (١٤) . إذن فالكلام فى الآيات هو عن نصارى بأعيانهم وليس عن كل النصارى . وقوله سبحانه : « الذين قالوا : إنا نصارى » ليس على إطلاقه فيشمل جنس النصارى كله ، ولكنه للعهد ، أى أن المقصود به طائفة معينة يعرفها المخاطب بالكلام .

وقد كان فى هذا الوفد عدد من القساوسة والرهبان فأشار القرآن الكريم إليهم بقوله : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » . على أن إشارة القرآن فى نظرى ليست لمجرد الإخبار ، وإلا لما كان ثمة داع إليها ، إذ ماذا يفيد أن نقول إنه كان فى هذا الوفد قسيسون ورهبان ، إذا كان وجودهم فيه لا يقدم ولا يؤخر ؟ إن معنى « القسيس » هو العالم عندهم ، أما « الراهب » فهو العابد الذى يخاف ربه ويرهب مقامه سبحانه ويخشى عذابه . ويبدو أن المقصود بقوله عز وجل : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » أنه كان فيهم قساوسة ورهبان حقيقيون . وذلك مثلما يقول الواحد منا : « إن فلانا رجل » ، وهو لا يريد أن يشير إلى جنسه وأنه رجل لا امرأة ، وإنما قصْده أنه رجل بكل معانى الكلمة من المروءة والوفاء وإمكان الاعتماد عليه فى وقت الشدة والجهر بكلمة الحق ... إلخ . فكونهم قسيسين ورهبانا بحقّ ، أى عالمين مخلصين للحقيقة يجهرون بها دونما مواربة أو خوف أو مراعاة للمصالح والأطماع الذاتية ، وخائفين متقين لربّهم يرجون رحمته ويخشون عذابه ، هو الذى جعلهم يخشعون لما سمعوه من القرآن ولا يتأبّوْن على ما فيه من دعوة الحقّ بل يسارعون إلى التصديق به وإعلان إيمانهم أمام الملإ ، مما كان له تأثير على سائر أعضاء

الوفد فأعلنوا إيمانهم معهم .

يقول سيد قطب ، رحمه اللّه ، فى هذا الصدد : « إذا كان الواقع التاريخى قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذى دخل فيه المسلمون عليهم المدينة فى صورة كيدٍ لم ينته ولم يكفَ حتى اللحظة الحاضرة ... فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ وقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم ، فيما عدا الحالات التى وقع فيها ما تصفه الآيات التى نحن بصددها فاستجابت قلوبٌ للإسلام ودخلت فيه ، وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمى بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كانوا يلاقون من ظلمها الوبال . أما التيار العام الذى يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التى لم يخْبُ أوراها إلا فى الظاهر منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك ... ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين فى حرب الإسلام على كل ما بينهما من أحقاد ، ولكنهم كانوا فى حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير : « بعضهم أولياء بعض » حتى مزّقوا دولة الخلافة ، ثم مضوا ينقضون هذا الدين عروة عروة ...

وهذا ما ينبغى أن يعيه الواعون اليوم وغدا فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة ، التى تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآنى دون متابعة لبقيته ، ودون متابعة لسياق السورة كله ، ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة ، ودون متابعة للواقع التاريخى الذى يصدق هذا كله ، ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التى تضمر لهم الحقد وتبيّت لهم الكيد ، الأمر الذى تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها وهى بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة » (١٥) .

الهوامش

١- المائدة / ٨٢ - ٨٥ .

٢- يقصد الرهبان الذين اتصل بهم سلمان الفارسي في رحلة بحثه عن الحق والذين كانوا يخبرونه بقرب مبعث نبي من جهة بلاد العرب .

٣- رسائل الجاحظ / ٣ / ٣٠٨ - ٣١١ .

٤- المائدة / ٧٢ - ٧٣ .

٥- آل عمران / ٥٩ - ٦٣ .

٦- التوبة / ٣٠ - ٣٢ .

٧- البقرة / ١١١ .

٨- المائدة / ١٨ .

٩- البقرة / ١٣٥ .

١٠- البقرة / ١٢٠ .

١١- البقرة / ١٠٩ .

١٢- المائدة / ٣٤ .

١٣- المائدة / ٣٥ .

١٤- انظر في ذلك مثلا ابن جرير الطبري / جامع البيان / ٥ / ٣ ، وابن كثير / تفسير ابن كثير / ٢ / ٨٦ ، والسيوطي / الدر المنثور / ٣ / ١٢٩ - ١٣٨ .

١٥- سيد قطب / في ظلال القرآن / ٢ / ٩٦٦ - ٩٦٧ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

إبراهيم خليل أحمد / إسرائيل والتلمود / مكتبة الوعى العربى / القاهرة / ١٩٨٣م

إبراهيم سليمان الجبهان / معاول الهدم والتدمير فى النصرانية وفى التبشير / ط ٥ / عالم الكتب / الرياض / ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

ابن تيمية / الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / مطابع المجد التجارية .

ابن حزم / رسائل ابن حزم الأندلسى / تحقيق د . إحسان عباس / ط ١ / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / ١٩٨١م .

ابن حزم / الفصل فى الملل والأهواء والنّحل / تحقيق د . محمد إبراهيم نصر ود . عبد الرحمن عميرة / ط ١ / مكتبات عكاظ / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

ابن قتيبة / تأويل مختلف الحديث / تصحيح وضبط محمد زهرى النجار / دار الجيل / بيروت / ١٣٩٣هـ - ١٩٧٢م .

ابن قيم الجوزية / هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى / تعليق مصطفى أبو النصر الشلبى / ط ١ / مكتبة السوادى / جدة / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

ابن كثير / البداية والنهاية / ط ١ / مطبعة السعادة / ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م .

ابن كثير / تفسير ابن كثير / دار الفكر / بيروت / ١٤٠٠هـ .

ابن هشام / سيرة ابن هشام / تحقيق السقا والإبيارى وشلبى / ط ٢ / مصطفى البابى الحلبى / ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

د . أحمد سوسة / مفصل العرب واليهود فى التاريخ / ط ٥ / دار الرشيد / بغداد / ١٩٨١م .

د . أحمد شلبى / اليهودية / ط ٤ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٧٤م .

برنابا / إنجيل برنابا / ترجمة د . خليل سعادة / مكتبة محمد على صبيح / القاهرة / ١٩٥٨م .

الجاحظ / رسائل الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون / ط ١ / مكتبة الخانجى / ١٣٩٩هـ - ١٩٨٩م / ٣ / ١٣ .

جماعة من اللاهوت المسيحيين / رب المجد / مركز المطبوعات المسيحية / بيروت .

رءوف أبو سعدة / من إعجاز القرآن - العلم الأعجمى فى القرآن مفسرًا بالقرآن / دار الهلال / القاهرة / ١٩٩٤م .

د . رءوف شلبى / يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سوء / ط ٢ / دار الاعتصام / القاهرة / ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

القمص زكريا إبراهيم / الله واحد فى الثالوث المقدس / ط ٤ / مركز العبية / السويس .

السموأل بن يحيى المغربى / إفحام اليهود / تحقيق د . محمد عبد الله الشرقاوى / الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد / الرياض / ١٤٠٧هـ .

سيد قطب / فى ظلال القرآن / ط ١٠ / دار الشروق / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .

السيوطى / الدرّ المنثور / ط ١ / دار الفكر / بيروت / ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

العلامة شبير أحمد عثمانى / تفسير عثمانى (بالأوردية) / مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة .

الأنبا شنودة / مقال « القرآن والمسيحية » / مجلة « الهلال » المصرية /

ديسمبر ١٩٧٠م .

د . صابر طعيمة / الأسفار المقدسة قبل الإسلام / ط ١ / عالم الكتب / بيروت / ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م .

صابر طعيمة / اليهود بين الدين والتاريخ / ط ١ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٧٢م .

صلاح العجماوى / جوهر الإيمان فى صحيح الأديان - أهل الكتاب / ط ١ / ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

الطبرى / جامع البيان / دار الفكر / بيروت / ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

عباس محمود العقاد / موسوعة العقاد الإسلامية / ط ١ / دار الكتاب العربى / بيروت / ١٩٧١م .

القاضى عبد الجبار / تثبيت دلائل النبوة / تحقيق د . عبد الكريم عثمان / دار العروبة / بيروت .

عبد الجليل شلبى / رد مفتريات على الإسلام / ط ١ / دار القلم / الكويت / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

د . عبد الحليم محمود / المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى / ط ٨ / دار الكتب الحديثة / ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

عبد الرزاق بن همام الصنعانى / تفسير القرآن / تحقيق د . مصطفى مسلم / ط ١ / مكتبة الرشد / الرياض / ١٤١٠هـ .

أبو محمد عبد الله الترجمان الميورقى / تحفة الأريب فى الردّ على أهل الصليب / دراسة وتحقيق وتعليق عمر وفيق الداعوق / ط ١ / دار البشائر الإسلامية /

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

د . على عبد الرحمن وافى / الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام / دار نهضة مصر / القاهرة .

د . فؤاد حسنين على / التوراة / القاهرة .

فخر الدين الرازى / مناظرة فى الرد على النصارى / تحقيق د . عبد المجيد النجار / دار الغرب الإسلامى / بيروت / ١٩٨٦م .

القرافى / الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة / تحقيق د . بكر زكى عوض / ط ٢ / مكتبة وهبة / ١٤٠٧هـ - ١٩٧٧م .

الكتاب المقدس / دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط .

محمد جلال كشك / خواطر مسلم عن الجهاد والأناجيل والأقليات / ط ٢ / دار ثابت / ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

محمد رشيد رضا / تفسير المنار / مكتبة القاهرة .

د . محمد زغلول سلام / الأدب فى العصر المملوكى / دار المعارف / القاهرة / ١٩٧١م .

محمد عزة دروزة / تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم / المكتبة العصرية / صيدا وبيروت / ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

محمد عزت الطهطاوى / محمد صلى الله عليه وسلم نبى الإسلام فى التوراة والإنجيل والقرآن / ط ٢ / مكتبة النور / القاهرة .

المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمة الله الهندى والدكتور القسيس فندر / تحقيق د . محمد عبد القادر خليل / ط ١ / دار ابن تيمية / الرياض / ١٤٠٥هـ .

الموسوعة العربية الميسرة / دار الشعب / القاهرة .

نصر بن يحيى بن سعيد / النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية / تحقيق د . محمد عبد الله الشرقاوى / دار الصحوة / القاهرة / ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

ول ديورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران / ط ٣ / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٩٨٣م .

ياقوت الحموى / معجم الأدباء / ط ٣ / دار الفكر / ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

Abdullah Yusuf Ali , The Holy Quran , Dar Al-Arabia , Beirut .

Basil Cottle , The Penguin Dictionary of Surnames .

Collier's Encyclopaedia , 1973 .

E. J. Brilll's First Encyclopaedia of Islam .

Encyclopaeida of Islam , New Edition .

James Hastings , Encyclopaedia of Religion and Ethics , Edinburgh , 1971.

Ludwig Ullman , Der Koran - Das heilige Buch des Islam . Goldmann , München .

Muhammad Hamidullah , Le Saint Coran , Beyrouth , 1973 .

The Oxford English Dictionary .

S. A. A. Maududi . The Meaning of the Qur'an , translated by Muhammad Akbar , 2nd edition , Islamic Publications Ltd. , Lahore , 1978 .

Dr. Salah El-dine Kechrid , Al-Qur'an al-Karim , 5 eme edition , Dar el-Gharb el-Islami , 1990 .

Thomas Patrick Hughes , Dictionary of Islam , Premier Book House , Lahore .

William Smith , Dictionary of the Bible , London , 1863 .

الفهرست